

المدينة الحافية

عزى عملا

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة

عام ١٩٩٢

اشياء الى :

- اتحاد كتاب مصر .. الى نادى القصة المصرى .
- القلوب الطيبة التى كان لبا اثرا فى حياتى .
- الى زوجتى .. وأبى وأمى ..
- الى ابنائى الأغزاء اسلام ومحمد وبسنت .

الفصل الأول

عند مطلع شمس أحد أيام شهر سبتمبر عام
خرج سلامة من بيته يحمل حقيبة مملأها بالملابس وقليل من
الكتب . . وفيما كانت ساعة محطة القطار تدق الساعة صباحاً . . .
تحركت عجلات القطار الى أحد موانئ البلاد . . حيث ركب
فى العربة الأخيرة ووضع أمتعته بجانبه . . وكان القطار يتمايل
يمنة ويسرة من تهالك عرباته القديمة . . وفى رأسه ضرب
شديد من التفكير جعل دماغه يدور . . وحاول مسك زمام
نفسه وهو اجسها فاضطجع الى الخلف ووضع رأسه على مؤخرة
الكرسى . . وحاول أن يذهب فى نوم يريحه من عناء الوداع
فى بيت أبيه . . لكنه لم يستطع الذهاب فى بعض النوم . .
كان لابد أن يبكى . . كل آلامه وأحزانه تجسعت لحظة وتساقت
فى دموع غزيرة .

وكافت العربة خالية الا من ثلاثة رجال يغطون فى نوم

عميق . .

وبدأ القطار يمضى من مدينة الى قرية الى نجع . . وجاءه
النوم . . ومر عليه المحصل فلم يوقظه كما فعل مع الآخرين . .
وكان الرجل الطيب يعرف أن هذا قطار المسافرين الى بلاد
الرحيل الجديدة . . انهم يسافرون عن طريق الميناء لرخص

لندكرة كثيراً عن الطائرة .. هكذا قال لنفسه .. انهم فقراء
 مساكين مثلى .. وكان فى كل رحلة يجد متعة فى تأمل ركابه ..
 حتى أن المحصل ذهب فى النوم مع زبائنه .. ونام القطار
 حوالى الساعة فى محطة « الندهة » لعطل فى القضبان .. وقلق
 سلامة لنوم العربات الهالكة وخاف أن يطول نومها فتطير
 الرحلة .. كان متوتراً من النوم الذى أخذ الجميع .. كان يريد
 أن يفر .. لقد ذهب ليأكل .. ليملاً بطنه الفارغة التى هوت من
 كثرة طعامه بتاو وجبن وفول فى الصباح والمساء .. كان أبوه
 يقول له : اذهب لتسأل البطون الخاوية لاخوتك .. اذهب ..
 وغط فى نومه بعد أن قام القطار من الندهة .. ولما استيقظ
 رأى الشمس قد صدحت وانتشرت فى طول الطريق وعرضه ..
 باتت عربات القطار كالحلة تفوح من مصاريحها ومقاعد رائحة
 الصداً وكان سقف القطار يبرز منه أسلاك دهنت بطلاء
 لصياقتها .. وأرضية العربة بها أكوام من قشر البرتقال والخيز
 القديم وقشر السودانى وبقايا من المخلل هذه الأكوام اختلطت
 رائحتها مع الصداً فأخرجت رائحة مخلل من نوع جديد كأن
 القطار معمل من معامل الطورشى المنتشرة فى حى كان القديمة ..
 وقام أحد الرجال من نومه يقول بين فينة وأخرى بأعلى صوته :

— حى مدد .. مدد حى ..

وكان الناسون يفعون نكنهم يتسمون ثم يغمضون
 عيونهم لنوم جديد .. وأخذ سلامه يدخل عربة بعد أخرى

بحثا عن واحدة لا تتبعث منها رائحة كريهه .. كانت عربات
القطار مكتظة عن آخرها بالراجلين وكانوا جميعاً قائمين وروائح
أخرى تتبعث غير رائحة العفن . وبعد عناء عاد الى مقعده في
العربة الأخيرة وفتح النافذة ..

ونزل من القطار في محطة الميناء وكأنه يجري .. كان
الجميع يهرولون وكثير منهم يبصقون على الأرض .. وآخرون
يتبولون في العربة وغيرهم قعد يتبرز بين العربات .. المحطة
أكوام من الرمال فقعدوا يعملونها خلفها وكانت دورة المياه
عائمة في مياهها القذرة وشيء طبيعي على هؤلاء الراجلين أن
يخرجوا نفاياتهم في الهواء الطلق حيث يقومون بهذه العادة
بين أعواد الذرة في حقولهم وأجرانهم .. ولما دخلوا المدينة
كانوا على درجة عالية من التزيين .. لقد أفضوا جميعا بكل
أسرارهم في القطار والمحطة .. وتشنح سلامة وهو يدخل المدينة
وترنحت ساقاه وشعر بهزة في رأسه .. وركب مع ثلاثة
عربة كارو حملتهم الى قرب الميناء .. وطلب أحدهم من الحوذي
أن يذهب بهم الى أى مقهى في هذا الحي القريب من البحر ..
ولم تكن هناك أدنى صلة بين راجل وآخر فكل يطلق في عمله
الذى يتركه وعالم المجهول الذى يرحل اليه .. كانوا خائفين
متوترين لكن كل واحد منهم يخفى توتره محاولا السيطرة على
قلقه . وفي ركن بالمقهى انزوى سلامة يتناول بعض طعامه
ويشرب الشاي ..

اقترب الوقت من الظهيرة .. فدخل أحد المساجد وصلى
بعدها قرأ في كتاب الله .. وكان في الوقت متسعا وعليه أن
يجول في البلدة بعض الوقت .. مدينة انتشرت فيها الأحياء
الخرابة .. أكوام من التراب والطوب والحجارة .. تصدعت
مازلها وتمايت .. تفلقت جدران بنايات العالية .. أحياء
نكاد تكون خالية من سكانها .. انتشرت الحانات التي تقدم
البوظة والخضور الرديئة .. وفي كل حي يوجد ملهى صغير
يديره رجال سيئو السعة .. ولم يجد مصنعا في المدينة ..
هنالك بقايا ورش ومعامل تنتج سلعا رديئة وأهم أسواقها سوق
السماك .. انتشرت المطاعم الصغيرة في كل مكان لاشباع حاجة
التراثيت .. وفي كل حي يوجد بيت على الأقل لممارسة الدعارة
يجلب اليه عدد من الصبية ورجال في الأربعين من العمر الزبائن
من القادمين أو المسافرين مقابل نسبة من صاحب الدار وبقشيش
من الزبون .. أى درجة من الأمان في مدينة تعتمد على الخطف
والنصب .. هل ايجاد حالة من التوافق النفعي بين كل الأنشطة
البشرية حتى القدرة منها يوفر أى درجة من الأمان الغذائي
أو الصحى أو .. بين اناس .. هل الأمان هو حراسة كل
يزنى ويسرق ويفبرك .. هل يريد الجميع أن يعيش بأى شكل
فنعتمد الأيدي على التهليب والعين على العيب .. وكل أفكار
الرأس تنصب على التجارة فى أى شىء .. حتى الانسان يباع
ويشترى فى أسواق مدينة بلا حارس .. هل كل الذين يدفعون

يتوفّر لهم الأمن ومن لا يدفعون يذهبون حيث تسقط بهم
الريح .. أى شىء فى مدينة يتولى أمورها بشر كالأغنام ؟ ..
أين جيو الحياة الصحى ؟ .. أين الحب الحقيقى والريح
الحلال ؟ .. أين حياة الصالحين ؟ .. هل الصالحون خطر على
الأمن ؟ .. لو كان فى مدينتى شارع للصالحين لذهبت اليه ..
كان سلامة يشى يفكر ويتساءل ولا أحد يعرف ماذا فى رأسه
ولو عرفوا لسخروا منه ، وازدروه .. ولم يجد لأى تساؤل فى
رأسه اجابة .. وتمنى أن يفر بلا رجعة .. ولما دخل المركب
كان العالم كله أفاقا فلماذا يذهب ؟ ..

.. وفى أول يوم فى عاصمة الوصول لم يجد مكانا واحدا
فى فندق ونام فى حديقة .. وفى اليوم الثانى نصحه واحد من
أهلها بالذهاب الى الضواحي .. وركب الباص الى أحدها ..
وبحث عن مكان فلم يجد ، وشعر بتعب شديد وقعد فى أحد
المقاهى على رصيف الشارع .. وأمسى الليل واختفت النجوم
فى السماء من شدة الظلمة .. وظهر المارة أمامه كأنهم تائهون
وبلا مأوى .. ومال برأسه على رجل من أهل المدينة يجلس
بجواره :

— ألا توجد فنادق فى المدينة تأوى حمرا مثلى ؟ ..
وابتسم ..

فتعجب الرجل من واحد يشتم نفسه وقال :
— الحمير القادمة ملأت كل مكان .. وهناك منها من ينام
على أسطح الفنادق ..

سلامة - وماذا أفعل يا سيدى .. هل أنام فى حديقة
مثل الأمس ؟ ..

الرجل - من يجبركم على ذلك .. تتركون بيوتكم
وأهليكم و ..

سلامة - الكفاح .. لقمة العيش ..

الرجل - ماكو عيش فى بلادكم ؟ ..!

سلامة - أريد أن أأكل الباجه .. (لحم الرأس) ..

وهز الرجل رأسه ونادى على الجرسوان :

- قورى شاي يا حمار ..

وكان الرجل يشرب الشاي وكأنه يلهط طبقا من البليلة ..
ورأسه الكبيرة تهتز يمنا ويسرة استمتاعا بالشراب .. ولما نادى
الرجل ثانية :

- شيشه يا دنكى .. وضحك وابتلع سلامة بعينيه وقال :

- مش دنكى يعنى حمار .. مش كده ..

سلامه - يعنى حمار .. يعنى يا حمار ..

. وقام الى الشارع يحمل أمتعته ، وقرل الى قلب الحى
التقديم حيث وجد مكانا فى فندق صغير .. ولما أبرز جواز
سفره ومقدم الحيز لصاحب الفندق .. كان أحد العاملين من
كان يحمل حقيبته الى الغرفة رقم ١٩ .. وتسد فى فراشه
بسلامه مستغرقا فى ذموله .. وحلق فى نزيلين بجواره وقد

غلا شخيرهما .. وتنى لو يفعل مثلهم لينسى تعب وأحداث
 رحلته .. قام وخلع ملابسه ثم اغتسل وصلى ودخل في فراشه
 لينام حتى صباح اليوم التالي .. حيث شعر بنوع من الازدهار
 يتفجر في داخله وأن مساحة اليقظة في رأسه تستوعب عالما
 آخر غير عالمه .. ولما قام وصلى تحسنت سريرته وشعر بقدر
 كبير من الاطمئنان يدخل قلبه .. وانبطح على بطنه قليلا يفكر
 .. وفجأة ارتدى ملابسه وغادر الفندق الى ساحة الحى ..
 وحفلت نفسه بكثير من الأمل وهو يجلس في أحد مشارب
 الشاي التى تطل على الميدان .. مركبات من طابقين ..
 مطاعم .. حوانيت .. أناس من كل العالم يروحون ويجيئون ..
 عربات صغيرة للطعام تقف في كل الزوايا .. عدد من نساء الحى
 هنا وهناك وأجمل ما فيهن عباآتهن السوداء وملامح وجوههن
 البيضاء وعيون كحيلة شديدة الحياء .. وأخرى شديدة اللهب
 ومنها ما تعوى لكنها تنكسر نحو الأرض فيخبوا العواء ..
 لقد جعلن من ساحة الحى الخالية من نافورة للسياه أو وردة
 هنا فى حديقة أو زهرة هناك أو شجرة دقوها على الرصيف
 ليحتمى فى ظلها المشاه .. جعل النساء هذا الميدان أحلى من
 مسرح مانيكان فى كان .. جعلن الميدان ساحة جميلة وبستان
 ينعت زهوره وعبقت رياحينه وفجرت صنابير المياه .. هؤلاء
 النسوة بزهن المألوف جعلن من الساحة قطعة من أرض خضراء
 تغنى بثناء الحى .. ان جماله هذا أثر من آثار التاريخ

القديمة .. ربما من ألف عام .. ولما انبثق قرص الشمس
يُصدح فى الآفاق .. يتوهج عند التفاف السماء بأحضان
الأرض .. كان كثير من الناس يذهبون الى أعمالهم فى زحام
وأن الحى القديم يسأ فى جوفه العالم كله .. وتساءل سلامة :
أين أنا من هذا العالم ؟ .. وماذا أريد ؟ .. لماذا كل هذا
التأمل فى واقع لا يعرف غير أن يندمج .. واقع لا يعرف الخيال
ولا حتى الجمال ؟ .. وشرب الشاي ودخل فى حزمة من البشر
تدخل مركبة الى قلب العاصمة .. وهبط الى ميدان كبير ..
وفيما هو يجوز الساحة الى شارع رئيسى وجد جمهرة من الناس
عند مبنى ضخم .. وانحشر وسطهم .. انهم جميعاً من كان وفى
لحظات حمل بعضهم رجلا يمسك ورقة فى يده ويزعق بأعلى
صوته :

— المهندسون الزراعيون فى محافظة مجيريا ..

المنادى عليهم يدخلون الى المبنى مسرعين .. وآخر ينادى
على آخرين فى محافظة تلوانه .. ومرت دقائق انسلخ بعدها
سلامة من هذا الحشد الا أنه ، وهو فى طريقه الى شارع عاقته
مشادة بين رجلين من كان .. ثم أطلق ساقيه الى آفاق أخرى
فى المدينة .. كان سلامة يحب الآفاق البعيدة المطلقة بغير
حدود .. يريد أن يأخذ خيطاً للحياة ويجرى به نحو العيش
الكريم الفاضل .. كيف يكون كريماً اذا كان مشروطاً ؟ ..
وكيف يكون فاضلاً اذا نشأت المشادات والشتائم للزحام من

أجله؟ .. ألا توجد بارقة نور عند أى منحى خالص نظيف؟ ..
وبدأت تنشأ فى صدره آلام ، ان كل شباب كان فى هذه
المدينة .. ليس من السهولة الحصول على فرصة عمل وسط
هذه الحشود .. وتطلع الى الآفاق التى يجبها وكلمها رأى
جسودا تجنبها ومشى فى الشوارع بغير هدى .. ودخل احدى
البنائات الجديدة لوزارة .. فعامله موظف الاستعلامات بالدور
الأرضى بكبرياء فشكره وانصرف .. ومر ببني آخر فقدم
صور أوراقه وانصرف .. وفى كل مرة يرى حشداً يمر به
على عجل الا أنه كان يلتقط تلك الوجوه البائسة التى
ارتسم عليها الشقاء .. ان الفنادق والمطاعم والمهاجر والأرصفة
محشورة بأبناء كان .. انهم يقومون بكل الأعمال الصعبة
والدنيا والحقيرة .. وملئه اليأس وتعت قدماء وارتسى فى
أحضان مقهى كبير يمتلىء بالكانيين الباحثين عن عمل ..
وقال لنفسه : يبدو أنه غير مؤهل للنجاح هنا ! .. لكنه لم
يجد بديلا حتى الآن من هذه الأعمال .. فهل تسوق اليه
الآفاق الواسعة بديلا .. وجاء الظهر فقام وصلى فى أحد
المساجد وانصرف الى مطعم تناول فيه الغداء .. وأخذته
ساقاه الى ساحة ميدان كبير كانت كل الأشياء حوله تعوزه ..
فهل تخدعه الدنيا فى رحلته .. ورغم قلة النقود معه الا أن
صدره ملىء بالأمل ووجهه مشبع بالبشاشة .. كان يشعر
بالفقر فى جيوبه لكن شعوره بالغنى والأمل فى داخله

لا ينتهى .. وركب باصاً سرعان ما امتلأ بالركاب غالبيتهم
من أولاد كان .. وقعدت بجواره امرأة فى العقد الثالث من
عمرها .. وجلس على طرف الكرسى متظاهراً بنفسح المكان
فشكرته .. فقال :

— العفو ..

ولما كانت تلتف بعباءة سوداء دفعته مخيلته الى تأملها
بطرف عينيه ، ويبدو أنه قد راق لها ذلك .. فابتسمت وشجعتة
بتلك الانفراجة المتحفظة على أن يقول :

— أنا سعيد برؤية كل امرأة ترتدى هذا الزى الجميل ..
المرأة — ياه .. معقول ؟ ونحن النساء هنا تشنوق
لملابس كان ..

سلامة — وما يمنعكم تحت العباءة ترتدون كل
ما تريدون ..

المرأة — هل أنت من كان ؟ ..

سلامة — نعم .

المرأة — لكنك تشبه أهل المدن !

سلامة — وهل كان كلها قري ؟ ..

المرأة — هل ترى الكانين فى هذا الباص .. أنت لا تشبه

واحداً منهم .

سلامة — هؤلاء من الجنوب ومن القري .. وأنا من قرية

ولكن ..

المرأة - لماذا أتيت ؟ ..

سلامة - للعمل .

المرأة - هل وجدت عملا ؟

سلامة - لا ..

المرأة - انى أجدك مختلفاً عن أبناء كان .. وربما كانت

ظنوني سطحية .. أقصد أألم يجد ما هم فى مثل مظهرك عملا

فى بلادهم ؟ ..

سلامة - المرتبات ضعيفة .. لا يستطيع خريج الجامعة

أن يقيم بيتاً بعد عامين مثلاً من عمله .. لا بد له من السفر حتى

يحقق ذلك بسرعة ..

المرأة - نحن نقدر فيكم هذا الطموح .. وماذا تريد

أبى تعمل ؟ ..

سلامة - وجدت الأعمال فى مدينتكم بالفنادق والمطاعم ..

ويبدو أنى لن أجد نفسى فى هذه الأعمال ..

المرأة - ما هى مهنتك ؟

سلامة - محاسب .

وصمتت السيدة برهة ثم قالت :

- هل تقود السيارات ؟

سلامة - لا ..

السيدة - والحمير ؟ ..

وضحك سلامة وقال :

- هذه التى أعرفها .

- السيدة - ماذا يعمل والدك ؟
- سلامة - فلاح ومصالح ..
- السيدة - مصالح . يعنى ايه ؟ ..
- سلامة - يصلح الناس تطوعا منه فى عمل الخير ..
- السيدة - هل يتقاضى أجراً ؟ ..
- سلامة - لا ..
- السيدة - وهل تعلمت منه شيئاً ؟ ..
- سلامة - لم أتعلم ..
- السيدة - نحن جميعا لا نتعلم الأعمال الصالحة .
- سلامة - كان فى قرىتى سعة من الرزق ودفعته هذه
السعة لعمل الخير والاستقرار فى بلده ..
- السيدة - وهل ضيق الرزق لا تدفع الانسان لعمل
الخير ؟ ..
- سلامة - ربما .
- السيدة - عندنا هنا سعة .. صدقتى هذه السعة تدفع
الناس لغير ذلك ..
- سلامة - انها صورة لم أرها بعد ..
- السيدة - سوف ترى .. وهل تعرف قيادة الأغنام ؟ ..
- سلامة - وهل الأغنام تحتاج الى قيادة ؟
- السيدة - حول مدينتى قيادة الأغنام مطلوبة .. كثيرون
من بلادكم يرعون الأغنام عند الأعراب فى الضواحي .. كانوا

يرعون أغنامهم .. ولما جاءهم الغنى استأجروا الكانين لهذا
العمل .. وأعرف واحداً من الأعراب زوج ابنته لكانى ..
ضحك سلامة وقال :

— زوجيني ابنة أعرابي وأرعى غنمه على أن ينقذنى أجزى
مقديماً لمدة عام .

السيدة — أعرف ماذا ستفعل بعد ذلك .. سوف تنزل
المدينة وتسافر على أول طائرة ..
سلامة — ولماذا أهرب ؟ ..

السيدة — ربما تفعل ذلك هرباً من زوجتك البدوية ..
سلامة — على العموم يا سيدتى أنا أمزح معك .. لم آت
للزواج يا سيدتى .. ما اسمك ؟ ..

السيدة — هند .

— اسمى سلامة .

السيدة — ركبت من ساحة الميدان الشرقى ؟

سلامة — نعم .

السيدة — هل تعرفها جيداً .

سلامة — نعم .

السيدة — انتظرنى غداً فى الواحدة ظهراً .. سأحاول

مساعدتك ..

وكان ذلك العرض الطيب مفاجأة لسلامة فاعتدل فى

جلسته وقال :

— يالك من سيده كريسه .. أشكر لك تفضلك على هذه
الخدمة .. غداً فى الواحدة أتظرك ..
وكان الباص قد دخل الحى الذى يقطن فيه الكانى وهو
نفس الحى الذى تحيا فيه هند .. وقالت وهى تقوم من
مقعدها للنزول :

— وهو كذلك غداً موعداً ..

— مع السلامة يا سيدتى أنا فى انتظارك ..

نزل ركاب الباص جميعاً فى ساحة الحى .. ولما نزلت
هند . وقصدت منزلها تبعها سلامة من مسافة بعيدة خشية
أن تراه يفعل ذلك فتغضب منه .. كانت البيوت فى هذا الشارع
من طابق واحد شيدت من حجارة لها أبواب حديدية قديمة ..
وسعد بهذا التأمل وانقلب الى الميدان ليدخل مطعماً لطهى لحم
الرأس .. ولم يكن المحل مزدحماً بزبائنه .. وجلس على طاولة
فوجد عليها طبقاً فيه بقايا من اللحم فالتهمه ، ولما جاء العامل
الكانى يسأله عن طلبه فضحك معه سلامة وقال مشيراً الى
الطبق الذى أمامه :

— مثل الذى كان هنا ..

فقهقه العامل وقال :

— كل زبائنى لا يستطيعون الانتظار ..

ولما انتهى من طعامه قصد المقهى الذى يقع فى الميدان
وهناك تأمل الناس وكانت هوايته اليوم أيضاً هى متابعة

النساء اللاتى يرتدين العباءة .. وكان يسوقه الى ذلك هذه
المرّة تعرفه على هند وهى واحدة من هؤلاء النسوة ..

وقبل المغرب بقليل دخل الى غرفته حيث تناول كتبه
ووضعها على منضدة بجوار سريره وتمدد بملابسه ثم قام
ليخلعها ويصلى .. وراح فى نومه .. وفى منتصف الليل
تقريباً سمع حديثاً يدور على الفراش الملازمين له فى الغرفة :

— ستة شهور أعمل فى هذا المطعم حتى أن قدسى
لا تستطيعان حملى بعد ..
ويرد عليه زميله :

— ان العمل فى وزارة الزراعة خدعه .. ويبدو أنى
سأعود قريباً ..

— بعث أثاث بيتى ولو عدت الآن فلن أستطيع شراءه
يا يسرى ..

يسرى — يا مصطفى لن نعود الآن .. لنذهب الى تلك
المدينة لنعمل فى أحد فنادقها ..

مصطفى — وهل سنجد فيها حظاً أوفر؟ ..

يسرى — نجرب .. لن نخسر شيئاً ..

وانقطع الحديث وداوم سلامة النوم ثانياً حتى الضحى ..
وقام ليصلى ثم تناول فطوره فى الفندق .. ونزل الى الشارع
قلماً ولما عاد أخذ يقرأ فى كتب المحاسبة ودخل عليه
ليشترى قلماً ولما عاد أخذ يقرأ فى كتب المحاسبة ودخل عليه
صاحب النزل قائلاً فى فظة :
— ١٧ —

– ممنوع الكتب يا سيد ..

سلامة – وهو يعتدل في جلسته :

– لماذا؟!

الرجل – ستجلب المشاكل لى ولك ..

سلامة – هذه الكتب مملوءة بالنظريات المحاسبية المملة ..

يس بها شيء ..

الرجل – أنت تضعها على الطاولة كأنها فى مظاهرة ..

أخفيها ويكفى الكتاب الذى فى يدك .. واقترب الرجل منه وأردف يقول وكأنه يهمس :

– فى عرضك انهم يجوبون النزل عشر مرات فى اليوم

نحن فى غنى عن ذلك ..

وهز سلامة رأسه علامة على أنه فهم وأنه موافق وقال :

– آسف يا سيدى .. فهمت .. معذرة لك وللجميع ..

لم أكن أعرف .. لم أكن أعرف وفى لحظات أخفى سلامة كتبه وربت الرجل على ظهره وخرج ..

بدأ انطباع صارم يأخذ مساراً نحو رأسه وفكر فى ترك

النزل .. ولكن الى أين؟ .. كل الفنادق بالتأكيد ينطبق عليها

هذه الأمور .. وكان هاتفاً داخليا مكبوتاً فى أعماقه يقول له :

اقتلع من تلك الحياة الخادعة الفرصة بأى شكل .. فهذه هند

ابنة القبيلة .. ماذا تخبىء وراءها من فرص الحياة؟ .. لو أذى

الأمر أن يتزوجها سيفعل .. هذه المرأة المجهولة عندها فرصة

الحياة له حتى لا يسقط تحت أقدام المدينة .. وكان السقوط

فى نظره أذ يعمل عاملاً فى مطعم أو فندق أو مقهى ..
ولما أعلنت دقائق الساعة الثانية عشرة ظهراً كان ينزل من
المركبة العامة وسط المدينة .. وامضى الى حيث لا يدرى يحدوه
الاصرار على انتهاز أى فرصة للعمل حتى ولو عمل حماراً ..
وتغيرت الفكرة لديه بأن السقوط الحقيقى أن يكون بدون عمل
وليس معه فلساً واحداً ومن ثم يتسول فى المدينة .. ان
السقوط الحقيقى هو الحاجة والتسول خاصة أنه ليس مؤهلاً
لذلك التدنى .. وكانت الشوارع تمتلئ بضجيج يؤذى
السمع ويؤلم النفس .. وأولاد كان هم مصدر الجلبة الرئيسى
فى أى شارع أو ميدان ولم يكن يستطيع وهو يسير فى
شوارع تكتظ بالمركبات والناس أن يتطلع الى السماء .. فى
ميسورة فقط أن يطرق الى الأرض .. ورأى وهو ينزل من
شارع الى آخر أن كثيراً من الناس فى أسماهم البالية وأحذيتهم
الممزقة وأصواتهم المؤذية هى أقصر طريق لجمع المال .. فهذا
صف ماسحى الأحذية .. ينادون على المارة يخطفون أحذيتهم
من أقدامهم حتى قنادر النساء جلبوها .. ويزداد هذا المنحى
اتساعاً عندما يسمع :

• ورنيش •

• لميع •

• أحر •

• أصفر •

• اسود ومنيل •

— غسيل ومكوى •

— يلعب ••

يضحك النساء •• تقع عباآتهن •• تتعري سيقانهن ••
يعنو صوت ماسحى الأحذية •• يسقط المطر •• يدخل الناس
جميعاً تحت مظلات الحوانيت وخلف جدران الأنفاق •• وتخلع
انساء أحذيتهن حتى ينتهى المطر •• وتسكت الأصوات لحظة
فيها فد يتوقف السيل فتستد كعوب النساء لترتدى الأحذية
لامعة وتجرى امرأة تعقبها أخرى فيدخلون فى المركبات العامة
والخاصة وبعضهم يفضل من يفتح باب حانوته •• وتهب الرياح
من كل جانب تكس الشوارع وتحمل مياه الأمطار الى فوق
فتتلاعب كالموج • ويصرخ الناس جميعاً يلودون
بالفرار •• يهربون الى بيوتهم الآمنة الا أولاد « كان » فهذا
موقف بطولى •• انهم يسعدون جداً حين يميل عليهم أهل
البلدة بقولهم :

— أبطال •• والله أبطال ••

ولم يكن لأولاد كان خيار •• الى أين يهربون •• انهم
يلوذون بعرباتهم •• ويحضنون صناديقهم ويخفون بفؤوسهم ••
ويغنون أغانيهم المشهورة سالمة يا سلامة ••

يامه القسر على الباب •

للصبر حدود •

خى خى حبيب قاسى ليه يا خى ••

كان البرد والقلق والخوف من كل ساعة تمر .. وتصارعت
 الأفكار في رأسه وغمه أن يرى هذا الشقاء في حال كل كافي
 يلتقاء .. وسحب نفسه من هذا الألم بصعوبة وأسرع نحو
 ساحة الميدان ليلتقي بهند .. جاءت واعتذرت على أن تلقاه
 بعد ساعتين في نفس المكان! .. ومشى حزينا حتى كوبرى ساحة
 الكرامة حيث مر بكثير من البيوت القديمة الخربة وكلما وقعت
 عيناه على امرأة عجوز أو بيت خرب أو طفل مشرد من أهل
 المدينة الفقراء وضع أصابعه على وجهه لشعوره بأن شيئا
 من الخراب أصابه ويقول بصوت مبجوح : وهل يأت من هذا
 الفقر البشع ما يملأ جيوبى ؟ .. كيف ؟ .. هل أشبع وسط
 هؤلاء الجوعى ؟ .. ان مدينة عامرة بالمتسكعين والشحاذين ..
 سمسرة .. متسبين .. دلالين .. تجار عملة .. رسامين
 صور عارية .. قوادين .. بائعى كتب قديمة .. مياه مجارى
 قدرة تعوم فى الشوارع .. جدير بهؤلاء أن يرحلوا ويتركوا
 المدينة أهلها .. انهم أقدر عليها .. لكن أصحاب المدينة يقولون
 ان هؤلاء العجبر جعلوا لتلك المدينة صوتا .. ان أعمالا كانت
 مفقودة قبل مجيئهم فأحيوها .. ان مدينة لا يعرف أهلها كيف
 يخبزون رغيف العيش فى حاجة الى هؤلاء العجبر .. انهم
 يعيدون عن شوارعنا وبيوتنا .. ان الشوارع الخربة تحوى
 ضجنتهم .. والفنادق القدرة تجمع عبثهم ..

وقضى نحو الساعة يهيم على وجهه . ثم انطوى عائدا الى

مبعده مع هند .. رجع من شارع آخر .. كانت فيه البيوت
بالغة القدم ذات نوافذ خشبية عريضة وأبواب من حديد لها
مزاليج صدأة من الداخل .. ولم يترك باباً مفتوحاً لمعمل
أو مصنع أو مقهى الا وبحث فيه عن عمل .. لقد قرر أن يعمل
فى أى شىء حتى لا يستجدى الطعام .. ووقف عند أحد الأعمدة
الخرسانية التى تتوسط رصيف محطة الساحة .. ولم ينتظر
طويلاً .. وحفت به عباءة هند من الخلف وتقدمت أمامه قائلة :
- تعال يا رجل .

وخفق قلبه وتبعها .. وصعدا الى الطابق العلوى وقعد
فى المقعد الخلفى .. وكانت العربىة شبه خالية فالتصق
الجسدان وبادرها سلامة :

- الى أين ؟ ..

- الى ضاحية بعيدة عن المدينة القديمة .. لتعرف البلد
الذى تعيش فيه .

سلامة - أريد أن أعمل أولاً ..

هند - ألا تريد أن تعرفنى ؟ ..

سلامة - عرفتك .. أنت أحلى نساء المدينة .

هند - أنت تكذب ..

سلامة - صدقينى ..

هند - أنت مجامل .. لأنك لا تعرف عنى غير اسمى ..

أنا .. أنا امرأة متزوجة .. كنت متزوجة ..

- سلامة - وأين زوجك ؟ ••
- هند - تم الطلاق بيننا منذ سنين •
- سلامة - هل عندك أطفال ؟
- هند - طفلة فى التعليم الابتدائى •

وأخذهما الباص الى المحطة الأخيرة ، فنزلا وركبا مركبة أخرى عائدة الى المدينة وأخبرته هند بأنها فعلت ذلك لزيادة التعارف بينهما •• وأن المواصلات هى الوسيلة الوحيدة التى تقدر عليها للتعرف على رجل غريب •• وأخبرها سلامة بأنه لا يريد أن يضيع وقتاً •• لقد قاربت نقوده على النفاذ وأن عليه أن يعمل بأقصى سرعة •• وطمأنته على ذلك وأكدت عليه أنها لن تتخلى عنه أبداً •• ثم ركبا باصاً ثالثاً الى الحى الذى يعيشان فيه •• وقبل أن يصلا المحطة الأخيرة بقليل فتحت هند حقيبتها وأخرجت لفة نقود ورقية ووضعتها فى جيب قميصه قائلة :

- هذه سلفة ستردها لى بعد أن تلتحق بالعمل •
- وتواعدا فى الغد على اللقاء فى نفس الوقت والمكان ••

ونزل سلامة الكانى سعيداً لتمسك هند به وتعهدتها بأنها ستقدم له كل المساعدة •• ومن فرط سعادته كان يريد أن يذهب الى المدينة ثانية يجوب كل شوارعها يحذوه الأمل فى الحياة •• الا أنه تمشى فى جوانب الحى وعد لفة النقود فوجدها سبعين ديناراً ودخل مطعماً والتهم نصف دجاجة وطبق

رز وهي أكبر وجبة تناولها منذ مجيئه .. بعدها رجع الى
الفندق لينام يوماً هنيئاً وقام في الساعة مساءً .. وكان في
زاوية من زوايا الغرفة مشجبة سعودية فعلق عليها بعض
ملابسه .. ولم يكن بالغرفة أحد غيره .. فتح النافذة فأضاء
مصباح الشارع غرفته المظلمة .. ودق صوت قدم عند
الباب لكنه سرعان ما تلاشى .. وجال يبصره نحو الباب وكان
يخاف أن يفتحه أحد .. يريد أن يبقى وحده في هذه الغرفة
رضوئها الباهت وقام وصلى على السجادة وأخذ النوم ..
وفي منتصف الليل قلب في فراشه وسمع صوتاً يبهو الفندق
مخاطباً صاحبه :

— عشرة أيام تقريباً ..

صاحب المنزل — الليلة دينار ..

— مش مشكلة ..

صاحب النزل — الغرفة مفتوحة بها نزيل .. هذه ..

وفتح باب الحجره .. ودخل رجل متوسط الطول يحصل
حقيبة أوراق في يده .. كانت الرأس تحمل شعراً كثيفاً قصيراً
.. له عينان جاحظتان منتفختان .. واقترب الرجل منه وتفحصه
وبدا عليه الاندهاش من رجل ينام على السجادة بالأرض ..
وبدأ في خلع ملابسه دون أن يرفع عينيه عن سلامة ..
ولم يضيء نور الغرفة معتمداً على الضوء المنبعث من الشارع

•• وتقلب سلامة يمينه ويساره ثم قام وقعد •• فى حين كان
الرجل القادم قد لبس جلبابه ودخل تحت الغطاء •• وعمل كانه
نائم •• وورنا سلامة نحوه فشعر بالخوف ومضى الى فراشه لينام
على جنبه دوز أن تغض له عين •• ومضى الوقت •• قليل من
الوقت ثم قام الرجل وأضاء نور الغرفة وقفل النافذة لشعوره
بالبرد •• وانعد سلامة نحوه وفرك فى عينيه وقعد فبادره
الرجل :

— مساء الخير ••

سلامه — أهلا وسهلا •• مساء الخير ••
وظهر الرجل جليا أمامه •• شاب لا يتجاوز الثانية والثلاثين
عاما •• وجهه يسيل الى السسرة ملامحه جادة حزينة •• عيناه
متنفختان كالذى مضى عليه وقت يبكى •• قلب الرجل فى بعض
الاوراق وكتب فى احداها ثم رتبها ليضعها فى ملف بالحقيبة
•• وجذب الطاولة الى سريره وأخرج سجائره وأشعل واحدة
منها ومد يده نحوه سلامة بسيجارة قائلا :

— سيجارة ؟

سلامه — لا أدخن ••

الرجل — منذ متى أقلعت عن السجائر ؟

سلامه — ضيلة حياتى لم أدخن ••

الرجل — غريب ! •• لماذا؟! ••

سلامه — لأنى أكلت كثيرا من الفتة وأنا طفل ..
الرجل — ما اسمك ؟
— سلامه .

الرجل — شاكر حسون من الجنوب .. وأنت ؟ ..
سلامه — من كان .
الرجل — بالطبع أتيت للعمل .
سلامه — نعم ..
شاكر — ما عملك ؟ ...
سلامه — محاسب .
أخرج شاكر ورقة كانت فى جيبه وأمسك قلمه قائلا
— اعطنى بياناتك ..

سلامة — سلامة محمد الهالى أبو عافية و .. و .. و ..
ووضع شاكر الورقة فى جيبه وأخبره بأن له صديقا فى وزارة
.. سوف يمر عليه فى الغد لمحاولة تعيينه ...

وتملئ سلامة فى جلسته فرحا وقال :
— تكون بهذا قد أسديت الى خدمة لن أنساها أبدا ..

وقال شاكر وهو يشعل سيجارة ثانية :
— لقد فعلت للكثيرين من بلادكم ولى علاقات بهم
وأزورهم فى أعمالهم حتى الآن ..
سلامة — وما هو عملك ياسيد شاكر ؟

شاكر - مهندس زراعى .. وأنا دائم القدوم الى العاصمة
فى مأموريات عمل .. عملى فى مديرية الرجف ..
وساد الصمت بينها قليلا .. وتفحص شاكر سلامة بعينه
الجاحظتين وباده قائلا :

- قرأت قصة بعنوان دم لفظير صهيون .. أحد
شخصياتها رجل دين يدعى أبو العافية .. وكانت أحداث
القصة تدور فى دمشق ..
سلامة - يبدو أنك واسع الاطلاع .. ليس لنا علاقة
فى كان بأى عائلة من دمشق وأعتقد أن الأسماء متشابهة ..
شاكر - لا يهم .. لا يهم ..

وقام حسون الى بهو النزل ونادى أحد الكائنين العاملين به
.. وأعطاه تقودا لشراء طعام .. ولما دخل فى فراشه كان
يحيى سلامة من وقت لآخر .. هلا بيك .. نحن بلد واحد ..
وكلنا أقارب .. توفق باذن الله .. هلا .. هلا .. ولما دخل
الرجل بالطعام أعده على الطاولة وقال شاكر :

- تعال أيها الضيف العزيز .. تعال نأكل معاً ..
فشكره سلامة وأخبره أنه تناول وجبة دسمة ولا يستطيع
.. الا أن شاكر أصر على أن يشاركه طعامه .. وتناولوا وجبة
شهيية من الكباب والسلطة والخبز الطرى .. بعدها تناولوا
الشاي وقعد كل منهما فى سريره وفى غمرة الحديث سأل

شاكر سلامة قائلًا :

— ما هو اتجاهك ؟

سلامة — اتجهى فى الصلاة ؟ ••

ضحك شاكر :

— فى غير الصلاة ••

سلامة — وأنا نائم ؟ ••

وابتسم شاكر كرة ثانية :

سلامة — حينما كنت أنام على الفرن على جنبى الأيمن

يكون اتجاه وجهى ناحية بيت خالتى عائشة البكلية •

فهقه شاكر وضرب الفراش بيده وقال :

— وعندما تكون على جنبك الأيسر ؟

سلامة — يكون اتجاهى ناحية عسى سليمان حنظل •

شاكر — انتهيت •• هل أسسى ذلك ذكريات من القرية أو ••

سلامة — انها قفشات من واحد فى قريننا يحفظ منها

الكثير •• يدعى •• عبد السميع تهامى ••

شاكر — بالله عليك لا تعرف معنى الاتجاه ؟ •

سلامة وهو يتجه نحو زرار الكهرباء :

— هل تسمع لى باضاء النور •• وأطفأه •

شاكر — هل تحب الظلام ؟

سلامة — أحب الشاعرية •• يكفى هذا الضياء الخافت ••

شاكر — الآن عرفت اتجاهك ••

سلامة - اتجاهى الحقيقى عبد الرؤوف ..

شاكر - ماذا يعنى

سلامة - يعنى اتجاهى قطرى ..

شاكر - من يقود البلاد يكون اتجاهى هو اتجاهه ..

سلامة - من الذى يطعمنى ويسقيني ..

شاكر - قائد البلاد .. هو الذى .. وهو الذى ..

كنا وأصبحنا .. و ..

سلامة - الله هو الذى يطعم ويسقى ويستتر جميع من

فى هذا العالم ..

شاكر - ألم تكن فى يوم من الأيام ناصرى ؟

سلامة - لا ..

شاكر - نحن هنا فى غير بلادكم كنا ناصريين ..

وقال سلامة فى سره :

- كل التافهين والفاشلين فعلوا ذلك وكان ذلك اتجاههم

لأنهم فى الأصل لا يعرفون الله ..

لكنه بعد صمته هذا كظم ثورته فى داخله وقال :

- أنا يا عزيزى لم يكن لى هذا الاتجاه .. من يعرف

الله لا يتبع أحداً .. وحاول سلامة أن يمسك جماح نفسه

.. وأن يجعل الله فى داخله لأنهم لا يعرفون هذه المعانى

النيلة ..

شاكر : ان ناصر هو الذى دعا الى القومية العربية وهو
الذى أقام أول وحدة عربية •

سلامة — كان عليه أن يوحد صفوف شعبه أولاً •• على
كل رئيس دولة أن يتوحد مع شعبه أولاً •• فكيف يقيم الواحد
منهم وحدة مع غيره، وهو منفصل عن جذوره الحقيقية ••
وسرعان ما تمالك سلامه زمام نفسه وبدأ يكذب لشاكر قائلاً :

— بلادكم الآن قائمة •• توحد الزعيم عباس مع شعبه
أولاً •• ثم بدأ يدعو للقومية العربية و •• انه بحق الزعيم
الحق •• والأوحد •• لقد آتيت بلادكم لكى أرى هذه الحقيقة
عن قرب •• أنى أحب هذا الزعيم ••

ان سلامة يريد أن يحقق هدفه دون أن يخسر شيئاً ••
وعليه أن يدفع بالشكل والمظهر الذى يريده هذا الرجل
والمؤمنون الايماني والفكرى يحتفظ به فى داخله ويعرفه
الله العظيم ••

وافترجت أسارير شاكر ويبدو أنه شرب غناء سلامة
ولما شعر سلامة بذلك أردف يقول :

— على العموم أنا رجل عادى كما ترى رأس كبير مثل
فحل الجاموس ولم يكن لى أى نشاط فى الجامعة أو أيام
كنت بالثانوى ••

ورد عليه شاكر محاولا أن يشنيه عن التنكيل بنفسه :
— لماذا يا أخى .. يا أخ العرب .. لماذا تشتتم نفسك
وتشبهها بالحيوان ؟ ..
سلامة فى هدوء :

— الحيوان فى عالمنا لديه من الخصال الطيبة ما تفوق
صفات الانسان التى اكتسبها فى هذا العصر .
شاكر — أنا أعرف أن الحيوان حيوان .. وأن الانسان
انسان ..
وكان سلامة يريد أن يقول له .. توقف عند هذه المعانى
ولا فائدة أن تعرفوا أكثر من ذلك ..

وصمت سلامة لكن شاكر قاطع صمته بقوله :
— أأنتم تطلبون منا العمل من أجل المال .. مرحباً بكم
.. ونحن نطلب منكم الانتماء والاتجاه .. ان لنا قوالب
يجب أن يصب فيها المواطن الحر ..
سلامة — أنتم لم تقدموا لنا شيئاً حتى الآن .. نحن
مستعدون يا أخى أن ننتمى ونتجه .. لكن أسرعوا ..
وهز شاكر رأسه قائلاً :

— نعم .. سنقدم هذا دورنا أولاً ..
سلامة — هل ستفعل شيئاً فى الغد من أجلى ..

شاكر - طالما كان اتجاهك سليماً، وأفصحت عنه صراحة
بأن بلادنا الآن قدوة .. سأفعل لك الكثير ..

ونام سلامة وهو خائف حتى من ضياء النافذة الخافت ..
وفي الصباح وجد كتاباً صغيراً عند رأسه وضعه له شاكر ..
وبعد أن قام، وصلّى قرأ الكتاب في ساعتين .. بعدها عرف
كيف يتجه .. ولما عاد شاكر في العصر سافر فجأة الى الجنوب
.. وترك لسلامة ورقة تفيد بأنه سيعود بعد أسبوع .. ولم تات
هند في موعدها بعد ظهر هذا اليوم .. ومر سلامة على بيتها
فوجده مقفلاً .. وكان يوماً شعر فيه بالكآبة ونام في غرفته
حتى بعد الغروب .. وبعد صلواته نام على سجادته طويلًا ولم
يكن معه نزل، جدد .. وفجأة أفاق مخبلاً وصاح هاتف في
داخله : آليس اى فى العودة آدان ؟ وهل يصح أن يكون أمانا
أجوفاً .. وقال لنفسه وكأنه يرد على هاتفه :: وهل أستطيع
فى بلد غريب تحقيق آى أمان ؟ .. وانتقل الى سريره ولما طلع
الصباح كان عليه أن ينتصر على كل أصوات الخوف من حوالا
.. ونزل الى الشارع مبكراً قاصداً قلب المدينة ..

ومشى بعصبية وقد كان ذلك المتجبول صاحب القامة
الطويلة والخطوة الواسعة رقيق القلب يتخبط فى سيره يهيم
بحثاً عن أى جديد .. ان سلامة بعيد عن الواقع ومنعزل عن
الناس فكيف يعثر على جديد ؟ .. هل يجد جديدا فى الهواء ؟ ..
ما هذا الذى يعتسل فى نفسه ؟ لقد سلخ سلامة ثلاثة عقود

من عمره فى عزلة وحساسية من العالم حوله •• لدرجة أن هذا العالم جرده من واقعه ومن حقبة نقود تسد أوده •• وهذه نقود امرأة يأكل بها ••

وكان والد هند قد عاد من الجنوب فلبثت ابنته فى البيت تطهو الطعام وتنظف البيت مع أمها •• ولم يكن والدها يرغب فى أن تعمل وتعودت حين قدومه ارضاءه بأن تبقى فى البيت أياما حتى تتلافى أية معارضة له وتتجاوز على رضاه ••

ولم تأت هند فى اليوم التالى . فدخل سلامة احدى دور السينما فى شارع الميسون وكان أمامه شاب فى مقتبل العمر وفتاة يتعاقبان فى حرارة ووجداه لذة فى متاعتهما وضربته يد رقيقة من الخلف ولما التفت قالت له :

— ألا تريد صديقه بعد الفيليم ؟

سلامة — أريد •

المرأة — هل تعجبك أعمال المراهقة •

سلامة — أتابع الأعمال دون أن أدرى ••

المرأة — هذه السينما معررنة بإبراء طيبة الحمامة والافوى

•• مقابل دراهم للكشاف ••

سلامة — ولماذا لا تفعلين مثلهم ؟

المرأة — لى بيت قريب من هنا تذهب معى اليه وتتمدنى

خمسـة دنائير ••

سلامة - هل تسمحين لى دقائق الى دورة المياه ..
المرأة - فى انتظارك ..

وفى سلامة الى الطابق الأرضى ومنه الى الشارع .. وكان
الجد أغلب عليه من أى شىء آخر .. وكانت هناك
احدى النساء الشحاذات ،والتي تضع على وجهها
خمارة تجلس على باب السينا فوضع فى حجرها قطعة
تقود ،وجرى نحو أى باص يحسله من لحظة ضعف
قد تعثره ويعود الى المرأة التي تنتظره .. وانتقل الى باص آخر
ليصل الى الحى الذى يعيش فيه .. ولما دخل غرفته لم يكن
قد اقتات بلغه من خبز .. وارتبى على فراشه بلائسه ،وظل
بعض الوقت مهسوما بحاله الذى توقف .. ولكنه ما لبث أن
قام وصلى ثم خرج الى الشارع ليضع تبيئا فى بطنه .. ثم شرع
يجوب شوارع الحى البعيدة مقوصا امره الى الله .. ورغم
أن كثيرا من المارة فابلوه فى الاماكن التي اجتازها فلم يتصفح
وجه واحد منهم .. كان محزونا من كل شىء حوله وعاد الى
نزله وصدره يمتلىء بالقنوط .. وفى اليوم التالى آوته
الشوارع والميادين قرابة ثلاث ساعات ثم ذهب لانتظار هند ..
ولما جاءته أخذته وركبا باصا وجلس الى جانبها صامتا

واعترضت له وكان سلامة صامتا طوّل الوقت حتى أنه لم يسألها
الى أين تأخذه فبادرته قائلة :

— هل تعرف أين نذهب ؟ ..

أجاب سلامة ببرود :

— المهم أن يكون ذهابنا بفائدة ..

هند — اطمئن هذا أول الجد ..

سلامة — وهل توجد أى ادارة حكومية تشح أبوابها بعد

الثانية ظهرا ..

هند — آت وديع لا تنفع فى هذه الدوائر .. وهناك

سيلاحقونك .. نحن ذاهبون الى ادارة تملكها امرأة ..

سلامة — وهل تملك النساء ادارات ؟

هند — كثير من البيوت والمحلات و ..

سلامة — على الله يا هند ..

هند — انها السيدة ريما .. صديقتى منذ أن كنا أطفالا

.. هاتفتها بشأنك .. المهم تريد أن تراك اليوم وتطمئن اليك ..

سلامة — مع من تعيش ..

هند — مع زوجها

سلامة — وكيف ؟ .. هل يعلم زوجها بالامر ؟ ..

هند — زوجها مسافر للعلاج بأوربا ..

سلامة — هذا كثير من أجلى ..

هند — بعد أن تستقر فى عملك سوف أحد حقى منك ..

سلامة - كم دينار ؟

هند - أريدك زوجا .. قالتها وهي الى الجد أقرب من

لمزاح ..

سلامة - ان عشيرتك لن يوافق على هذا الموضوع .

هند - انهم يوافقون على أى شىء وكانت تريد

ان تكسل .. أى شىء .. لكن العربة وصلت محطة ريما ..

فغادراها ..

ودخلا الى الحى الهادى أرقى أحياء المدينة .. بيوت جميلة

وقصورهم بناؤها حديثا سوارع واسعة على جانبيها أشجار

كثيفة الظل وأمام كل بيت برميل أو صندوق خشبى للنفاية

.. .. وتير من أصحابها أقاموا صبورا للماء البارد ملاصقا للسور

الحديدى لشرب منه المارة وفيما سلامه يتعجب كانت

هند تبسم ثم أمسكت بيده واحتضنته بصدرها من الخلف

فركتها سلامة تفعف لقد بدا عليه الرضا والحبور ما جعل

هند تبتسم من وسطه وساعدها على ذلك خلو الشارع من

المارة وكان صدرها يلتصق بشارع سلامة فى حرارة وكلمة

برزا من شارع الى آخر كانت هند تزداد التصاقا به وتآهت

وتدالت وقالت له :

- ليتنى أمالك بيتا فى هذه المدينة

سلامة وهو يسالك نفسه :

وماذا كنت تفعلين ؟

هند - سأخذك وذلك الهوى الى بيتى .. انى أحبك
.. أحبك .

ولم يجد سلامة فى قولها أمرا غريبا انه كان يريد أن يقول لها نفس الكلمات وأكثر .. وزاده شوفا أن تقول ذلك مرة ثانية وثالثة انه لم يسمعها أبداً .. لقد شعر سلامة بمباهج جديدة عليه .. شاء له أن يدخل الى معالمها .. بينما غاصت هند فى احتضانه وفى .. ونسى هو الى أين يذهب .. تسنى لو يأخذها الى أى مكان .. لقد نمت الشهوة حتى رأسه وانقضى كل شىء فى بيت ريبا حيث وصله فلم يجدا السيدة وفتحت لهما السيدة ندا خادمة القصر الصغير وتركتهما فى غرفة الاستقبال وبناء على أوامر من هند .. ذهبت ندا الى غرفتها ونامت ..

لقد خلعت هند ملابس سلامة واحدة بعد الأخرى .. كان باب الغرفة قد أقفل تماما من الداخل وأحكمت النوافذ .. خلعت هند ملابسها دون أن تبالى بشىء حتى من صاحبة البيت .. كان هناك ما هو أقوى فى جسدها .. وكانت ثيابها الداخلية الحريرية ورعشتها وسرختها .. وشوقها وجسدها وشعرها ووجهها وعيناها دنيا ليس بعدها دنيا يراها سلامة لأول مرة ويغرق فيها وتسنى سلامة لو يظل طول ليلته هنا فى تلك الغرفة .. كانت هند تبكى وتسكر من اللقاء .. قالت ما لم تقله امرأة هذا اليوم فى المدينة كلها .. وتعلم سلامة ما لم يتعلم

وكتشف أفاقاً جديدة لم يكن يعرفها من قبل .. لقد ندم
 على كل الأيام التي حلت لأنه لم يكن يعرف تلك المرأة وتعجب
 من هذه المرأة المشيرة وفضلة الخيام .. هل كل فتاة من
 العشائر لها تلك الامكانيات الفذة .. أم أن هذه هي دنيا
 كل امرأة .. وسحبته عليها تنرب من شبابه .. تدخل اليه
 وانها وجسدها البصر .. تنف ذراعها حول رقبته تتقلب كال موج
 تدلع في حرارة وشوق ودنيا .. غرق سلامة وغرقت همد ..
 هذه بهيمة الحب ودنيا العشق بغير حدود .. هذه هي
 الأفاق الحقيقية .. وشعر سلامة بأنه رجل عبيط لقد اكتشف
 لكنز متأخراً .. ان اللقاء بهند هو حمى السعادة التي ما بعدها
 سعادة .. كان وجهه يعصرها .. قبلات كأنها جبل يلتف
 شفقتها أما قبلاتها فكانت صرعى .. تسوت فيه وترتمى عليه
 .. كانت كأنها تسورت الليلة فتشرب من كوب لا ينضب شرابه
 قبل أن تحرق منه .. كانت شفقتها كأنها امرأة ترقد فوق فيها
 .. وسقط الليل وزاد انفجور فتداعبه أكثر وتراوغه في شوق
 أنتع عنفا ولما كانت تنطح أنفاسه تقترب منه أكثر وتعضه من
 صدره ويزداد جنونه .. ولم ينقطع اللقاء .. فمن لقاء الى
 لقاء .. كان النهر يجري والمركب تدخل في أغواره كان العناق
 لا ينقطع واللهيب ينفجر ويزداد لها كان الجسد يخور ..
 جسدها يخور وجسده يحترق .. كان العنف واللذة وطول
 الحرمان .. كان البيت يكاد يقع من شدة اللقاء وقوة اللهب
 .. كانت تجن به وأدركت أن ذلك هو حبها الكبير الذي كانت

تحلم به .. ولم تكن تستطيع أن تتصور أن يصبح هذا الحلم حقيقة وهكذا أصرت ألا ينتهى اللقاء .. ولم يكن سلامة يجهل تلك الأحلام .. كان يحلم كأى رجل أحلاما منقطعة يقطعها التفكير فى لقمة العيش والحصول على المال .. لكن دنيا المرأة دخلت اليه قبل أن يدخل فى أى عمل .. فهل تكون غريبة سلامة امرأة .. لقد استسلمت له .. بل سلمته نفسها بحب وشوق وهو الآخر سلبها نفسه .. وانقطع .. اللقاء الذى دام حتى الساعة مساء .. وارتدى كل منهما ملابسها ودخلت الحمام تغتسل وطلعت فى كامل ملابسها ودخل دون أن يعتريه خوف .. وجلس كل منهما بعيدا عن الآخر فى أدب متظاهرا بالاحترام وكل منهما لا يصدق ما حدث .. وكان سلامة فى نظر هند رجلا بارعا أما هى فكانت امرأة ولا كل النساء .. وقال لنفسه : أملك امرأة أملك كل المدينة .. وقالت هند أملك رجلا مثل سلامة أملك كل الحياة ..

واجتازت المدخل الصغير تهروا خلفها ندا حتى باب البيت الداخلى وقد أخبرتها الخادمة بقدوم هند ورجل فباتت علمى وجهها سيماء من الخجل لكنه سرعان ما حل مكانه السرور الخالص .. وتقدمت تجوز الصالة الى الغرفة التى يجلس فيها الضيوف .. وتقدمتها كلمات :

— هلا .. هلا هند .. هلا بالضيف هلا ..

ودخلت سيده حلوة الطلعة مشوقة القوام باسممة الشعر منسدلة الشعر يخيم على كتفيها فى أبهة .. عود امرأة كأنه

من بان .. كانت .. الكحيانان الجريتان في حذر قمر
بصره عنه الليل ويمسح عن الرؤوس حرارة الشمس .. قدها
المستوق .. شعرها المنفوف وشعرها المنثور كأنه مخور وأى
تسليم .. يحضن صدرها المكثوز .. كان السحر ينتظر من بسبه
ذوب زهرة .. تلوح أمانتها البيضاء مثل عاج مطعم من نور
كنازات المرصوف .. تلك ساقها جورب حريري شفاف داخل
حذاء صغير أسود لامع .. مشت في رشاقة وكأنها تطير مثل
بابل في حديقة غناء بالأسس ورق الشجر في خفة ورقة ودلال ..
وكانت أجراً ما في المرأة حين وضعت ساقا على الأخرى ..
كان الجمال كله معرقاً على ساقها في هذا الجورب الحريري
كانت المدينة كلها منساعة بنور لا تحتسله العين .. كان البيت
كله يغرق في لذة وسحر لا نهائي كانت المرأتان والغربة والمدينة
الحالية .. كان سلامة يشعر بأنه أصبح سيديا ..

وقال بصوت يمر في داخله .. صوت بالغ الصدى :
— ألا يكون في اتجاهي الى النساء الجميلات اتجاهها
.. شاكر حسون ..

ومرت دقائق في الترحيب والتعارف .. بعدها دخلت
المرأتان الى المطبخ تعمدان الطعام حيث دار بينهما حديثاً طويلاً :

ريسا -- من أين أتيت به ؟

هند -- من المدينة .

ريسا -- وهل في المدينة نساذج شبيهه ؟

هند -- هذه الحبة قليل منها في المدينة .

ريسا وهي تتسايل الى الخلف برفبتها مبتسمة :

— هل تدركين ما أعانيه ؟

هند — تريدن رجلا ؟

ريسا — رجلا أتزوجه فيما بعد .

هند — هذا الرجل من أجلى أنا .. وما ينفى أجل

رجلاتك سوف أقضى لك هذا ..

ريسا — أنا أهزر معك .. وماذا تريدن منى ؟ ..

— هند — مساعدته .

ريسا — أراه شابا لا يستطيع ادارة محل .. يعنى هذا

رجل نظيف انى أتخينه رجلا يتقلد منصباً رفيعاً ..

هند — هو يعمل محاسباً لكنه جاء من أجل المال وهو

مستعد لادارة محل .. نجربه ..

ريسا — لا مانع .. ورتت اليها فى خبت وأردفت :

— هل تجبين هذا .. ما اسمه ؟ ..

هند — سلامة .

ريسا — هل تجبين سلامة ؟

هند — أعشقه .. قلتها لك بصراحة ..

ريسا — من أسجوع يا هند ؟ ..

هند — من هذا اليوم ..

ريسا — ولماذا من اليوم ؟ ..

هند — من اليوم .. من اليوم .. هذا هو .. هذا هو ..

ريسا - كلامك مبهم غير مفهوم ..

هند - فيما بعد .. فيما بعد ..

وحملت هند حاوية الطعام وذهبت بها حيث يجلس سلامة
وتبعتها ريسا تحسب بعض الأضيق • ولما انتهوا من طعامهم
جلست المرأتان على الأرض بعدان الشاي .. واتجهت ريسا
بحديثها الى سلامة :

- لقد رأيت كثيرا من أبناء كان في المدينة واهم أختلط
بواحد منهم أو أحادته .. يبدو أنك نوعية طيبة منهم .. زوجي
يسلك عددا من المحلات فضل قفلها قبل سفره للعلاج .. لكن
هو لا يمانع في فتحها اذا كانت في أيد أمينه ..

هند - من ناحية الأمانة اطمني •

سلامة - جربى فتح أحدها .. وسوف أكون عند حسن

ظنك وظن زوجك ..

ريسا - التجربة لن تفقدنى شيئا ..

وتحدثوا بعد ذلك أحاديث متفرقة كان فيها سلامة يستمع
أكثر مما يتكلم .. وكان الرتب يقترب من الثامنة والنصف
وعلى هند وسلامة أن يغادرا البيت حتى لا تقلق أم هند ..
ودخلتا السيدتان الى غرفة النوم .. وحملت ريسا صندوقا
صغيرا من الخشب ووضعته على الأرض لتقلب في كتلة مفاتيح
تبحث عن واحد منها وتسلسه لهند قائلة :

- هذا مفتاح المحل الكائن بسيدان البغليط .. هل

تعرفينه ؟ .. فى نفس الميدان بجانب محل البويات .. مكتوب
سليه نادى العلاوى ..

وهزت هند رأسها دلالة على معرفة الميدان والمحل .
ثم ذهبتا الى الرجل حيث ناولته ربما ورقة بها تليفون
بيتها حتى يحادثها فى أى وقت بخصوص المحل .. وأخذها
منها مستنا وشاكرا .. وأبلغته بأن هند ستعطيه مبلغا من المال
لتجهيز المحل بالنشاط الذى ينوى القيام به .. وانصرفا من
بيت ربما ..

وكانت هند تحتضن ذراع سلامة على صدرها مسا آثار
سائق العربة وجعله يصفق باب سيارته بشدة بند نزولهما ولعن
فى الغرباء والمدينة التى دنسوها بأفعالهم ..

وفى صباح اليوم التالى ذهبا الى المحل .. وسعد سلامة
به غير أنه فى حاجة الى التنظيف والتجهيز وشراء بعض المقاعد
والطاولات .. وطلعت هند الى السندرة حيث طلبت من سلامة
تنظيفها وشراء مرتبة وشرسف ومخددة بدلا من أثاثها الذى
أصبح باليا .. وكان سلامة يقول لها كلما أرادت منه عمل شئ :

— عيني .. من عيني .. عيني ..

وكان يعجبها ذلك وتضحك .. وقبل أن تغادره ذاهبة الى
سليها قالت وهى تضغط بأصابعها على يده :

— اعتنى بالسندرة .. هذا بيتنا الجديد ..

وجلس بالمحل لا يصدق ما حدث .. لقد تعرف بامرأة لتأتى
إليه بهذا المحل .. وتساءل .. هل فى هذا واقعية ؟ ..

هل هو يسير فى هذه المدينة بخطى سلبية ام أنه يتجبط ..
وأغلق المحل وراح يجوب الشوارع يفكر فى الرجل الذى
يساعده فى عمل الحياوت .. كانت الشوارع فى نظره فسيحة
والبنيات شاهقة الارتفاع والمركبات يقودها ناس ضييون ..
ولما كان يعود الى منزله كان النخل منبثقا على الجانبين يحصل
أسبطة مسلوقة بانثر .. وفى الفندق عندما دخل المساء تقابل
مع عبد اللطيف يحيى وهو أحد معارفه بالفندق والذى التقى
معهم على عجل .. عرض عليه فكرة المحل ورحب الرجل بذلك
واتفقا أن يذهبا معا فى الصباح لتجهيزه .. وفاء سلامة ونزل
الى الشارع .. ومر على بيت هند من فرط سعادته بها ..
وتمنى لو ما على بابها وصرقته وعندما ترد عليه سيفول لها :

— أنا عبد الرؤوف .. ربنا يخليك ..

وضحك ملء قلبه وتابع سيره .. كانت تدور فى رأسه
الكثير من المعانى والأفكار .. وكان الناس فى الشارع يهيمون
على وجوههم .. وأخذته قدماه الى شوارع لم يظأها من قبل
.. وعند زقاق ضيق وجد بيتا له باب خشبى قديم .. واستدار
مرتين الى الخلف ليرى أحدا يرقبه .. واقترب من الباب ليجد
امراة حلوة تنهض درجات المنزل الداخلية نحو الباب ورجع
للخلف وأملت المرأة صوتا وكأنها تقول :

— ايش بيك .. ماذا بك ..

فلهت قائلا :

- أنا تائه .. تائه .. وتوقف لحظة لما وقعت عباؤها
 على الأرض فانحنت تلمها .. كانت المرأة ذاهبة الى أحد الفنادق
 الكبيرة فى المدينة . وكان قميصها الطويل اللامع وجمالها
 المحبور يدل على أنها ذاهبة الى أرقى أماكن المدينة .. وعاد
 الى الخلف وأخذ يشق طريقه الى الأمام فى أزقة ودهاليز
 وساللم عتيقة ودخل فى شارع الى اليمين واسع باهت الضوء
 وهروول حتى منتصفه وكان يسمع ضجة مكتومه يثيرها أهل
 الحى فى بيوتهم عند المساء .. لقد كان الحى الصغير الفقير
 القديم من أحياء العاصمة الذى يجذب الناس للسهر والونسة
 وقضاء الوقت .. بيوت معروفة مرخص لها بذلك .. كانت
 هناك ضجة وضحكات عالية وأصوات نساء وفتيات ورجال
 تنبعث من بيت الى آخر .. واستدار متشججا يضيق صدره
 الى الخلف ويملاه الخوف فلم يستطع أن يهروول وخاتته قدماه
 المرتعشتان من تحته .. كان يستطيع أن يشى فى خوف ..
 لم يقابله أحد يسأله كيف يخرج من هذا الحى ولم يستطع
 سرق باب يسأله .. وانتشرت فى أرجاء الأزقة والشوارع
 الضيقة رائحة السسن واللحم والمرق وتعجب من حى فقير منبعث
 منه هذه الرائحة .. لقد كان الحى مرارا لكل الناس ومن
 مختلف الجنسيات .. كان يعرفه القادمون عند سلم الطائرة ..
 حتى رائحة العطر كانت تعبق فى تلك الحارات والبيوت القديمة
 .. وتنفس سلامة الصعداء قليلا حيث ألهته رائحة الطعام
 وشعر بالجوع وفجأة خرج رجل من أحد البيوت قائلا :

— من تريد ؟ ..

سلامة — لا أحد .. لا أحد .

الرجل يقترب منه :

— من أتى بك اذا ؟

• سلامة — أبحث عن فندق

• الرجل — ليس هنا فنادق

واقترب الرجل منه يتفحصه بعيون يخرج منها الشرر ..

وصفعه على وجهه بقوة .. وحاول سلامة الأمسالك بيديه حتى

لا يكرر ضربه غير ان الرجل ضربه ثانية على رأسه ولاذ بملابس

الرجل يستحلفه .. ماذا فعلت ؟ .. ماذا حدث ؟ ..

أنا غريب .. ارحسنى ..

الرجل — هذه البيوت لها كرامتها .. لا أحد يتجسس

فى حيننا بعد السابعة مساء .. وتجروء وأنت الكانى الجربوع

على أن تدخل بيوت الكرام ..

سلامة — لم أعرف هذه التقاليد .. تبيت فى مدونتك

وهذا يحدث لأى انسان غريب ..

الرجل — ما اسم أمك ؟ ..

• سلامة — حسيده .

الرجل — وهو يسك بتلايبه :

— يعنى ايه حسيده .

• سلامة — يعنى تحمد الله ..

الرجل يبصق فى وجهه ..

— نحن نحمده من غير كلامك يا يا كاني ..
الرجل — كم اسم لحميده فى بلادكم أتم مشهورون
بالحمد رغم فقركم ..
سلامة — فى قرينتنا فقط محمود شكوكو أمه اسمها
حميده وعبد الله عفيفى وصالح الهلالى وحسين عبد الرزاق
وفرحات شينك ..

الرجل — ماذا أفعل بهذه الأسماء يبدو أنك ساذج أبله ..
وضربه الرجل على قفاه وقال مشيرا الى شارع على
اليمن .. خذ هذا الشارع حتى تصل .. اجرى بأقصى
سرعة .. لو رأيتك هنا ثانية لذبحتك .. هل تسمع .. وفر
سلامة من الرجل وهو يقول :

— حاضر .. حاضر .. حتى اهتدى الى نزله وهناك
ناء يملأه الذعر والخوف .. وعاب على نفسه حبه للآفاق التى
أوصلته الى هذا الحى ان الآفاق عنده نبيات له أن
الشوارع تؤدى الى الفندق .. ولم يكن يعرف أن فى ذات
الحى هوه سحيفة عريقة فى ظلامها وتقاليدها .. لم يكن يعرف
أن رجالا محترمين جدا يقصدون هذا الحى وأن لكل امرأة
سعر وقيمة ودرجة وكل بيت له زبائنه وله بضاعته .. لم يكن
يعرف أن دخان المدينة عند الفجر ورائحة البوظة المخمرة
وأوانى الطعام والكؤوس الفارغة والنساء اللائى نسامرن ورقصن
وتأوهن كل قد انكب فى ظلمته نائسا أو مترنحا أو متصعلكا ..
ان كل هذه الأفعال السيئة تقابل الصدا وتلوذ به الصدا

المتراكم على قضبان السكك الحديدية وجدران البيوت الآيلة
 للسقوط .. هؤلاء لا يعرفون ولا يدركون مهما علت أصواتهم
 وأحداثهم أنهم ذاهبون الى الظلمة والى الضعف والتردى الى
 مهانة الانسان مع نفسه .. ومع ذلك ففي كل صباح يفتح الله
 صفحة جديدة للناس جميعا .. يصفح ويعفو ويعطى وهم
 لا يبصرون .. فعندما يأتى الليل يهرب الكثيرون مرة أخرى
 الى الضعف .. ولم يكن سلامة ذليلا مع نفسه لكنه كان ذليلا
 مع الناس .. وفي صباح اليوم التالى عند الفجر قام وذهب الى
 الجامع ليصلى فوجد النساء والأطفال والشيوخ .. وهناك أدرك
 أنه بقدر البيوت المظلمة في الليل توجد البيوت الميرة في نفس
 الشارع واحى والزقاق .. ودخل الى المدينة مع أول نور
 للشمس .. وفي خلال يومين أصبح المحل نظيفا من التراب
 والوسخ وفي اليوم الثالث تم طلاءه بالبيوتية .. وذهب الى
 سوق السكك للتعرف على أحواله وتم شراء الألباق والموازين
 والجلاسات وكل ما يلزمه محل بيع السمك المشوى وبعد يومين
 أخبر سلامة السيدة رينا هاتفيا بأن المحل جاهز للافتتاح
 وبالصدفة كانت هند تزورها .. غير أن رينا أعربت أنها لا تحب
 أن تكون المرأة في أى افتتاح .. وسألت سلامة كيف يكون
 الافتتاح فى كان .. وعندما شرح لها سلامة .. قالت له أن
 الافتتاح فى المدينة له معان وأفعال أخرى .. غير أن هند ضربتها
 على ساقها بيدها وأخذت الهاتف لتقول لسلامة أنها ستكون
 فى الافتتاح .. وسألته عن تجهيز السندرة فأخبرها بأنه له

يشتري حاجياتها بعد ورجته أن يجهزها في الغد .. وأخبرته
 بأنه لن يكون افتتاح الا بعد أن تكون السندرة أجمل غرفة
 نوم في العاصمة .. وكانت ريمما تتعجب من فجور هند .. وأهت
 هند المكلمة بأنهما ينتظراه على الغداء وعليه أن يترك المحل
 لزميله ويكون عندهما بعد ساعة على الأكثر .. وشعر سلامة
 بالخجل أثناء ذهابه الى امرأتين في بيت .. لكنه كيف يخجل
 وهو رجل أليس لهذه المدينة فجور .. فكيف لا يأخذ منه
 قليلا .. ويقابلته هند عند الباب واحتضنته حتى دخلت به الى
 صاحبة البيت وكان يريد أن يتخلص من ذراعيها قبل أن ترهما
 ريمما الا أنها أصرت فتركها .. غير أن ريمما نملكها الغيظ لكنها
 ابتسمت ابتسامة باهتة محاولة تحية سلامة .. ولما قعد شعر
 باستيائها من هند .. فاعتذر لها في اللحظة التي ذهبت فيها
 هند لاهضار ماء وقالت له ريمما أن انذنب ليس ذنبه ولكنها
 طلبت منه ألا يعطيها الفرصة وارتاح سلامة لطلبها .. ولما عادت
 هند تحدثت مع ريمما قليلا واستطاعت أن تجعل سيدة البيت
 تضحك من قلبها ضحكة عالية .. كانت هند تلبس فستانا
 يظهر جسدها الذي ينبض من تحته .. يرتعش عندما تمشي
 ويتمايل عندما يقف ويرتعد لما تقعد .. غير أن جسده كان
 يتجنب وينشغل ويخجل من تبرج المرأة فهل هذه الحياة
 الضعيفة التي يحيها الناس .. هل الحياة أصلها متمايل مائع
 منحل .. ان الحياة يجب أن تكون متماسكة وان أصلها يجب
 أن يكون قويا وخلقا .. أم أن الحياة خليط بين هذا وذاك

•• هل الحياة حكم من القوى على الضعيف •• وعلى الضعيف أن يقبل حال القوى •• ولما شطح بأفكاره فى تلك الآفاق اثنتى تلامسها النفس جال بصره فكانت صاحبة البيت تبتسم وترحب وحركتها الدائمة بوضع ساق على الأخرى بين الفتية والأخرى لكفيلة بأن تضى على المكان كثيرا من المتعة أو الروحة •• فهل هذا هو سكر الحياة الواعى اللذيذ •• وكانت المرأتان قد تناولتا غداءهما •• وأحضرت ربما الطعام لسلامة وتركاه ودخز الى البيت •• وكان اللقاء يتم بين المرأتين كل منتصف شهر تقريبا وينصب أوله على ثرثرة عامة •• غير أن الثرثرة هذا ابيوم انصبت على الرجل الكانى •• وكان رأى هند أنه رجل يثير المرأة بمجرد الدخول عليها أو المرور بجوارها •• تشعر المرأة تجاهه بالعنف والرقة والوداعة فى آن واحد •• وكان رأى ربما أنه رجل يبعث على الاحترام وبريق الحزن فى عينيه كفيل بأن تبحث المرأة عن سره داخل أعماقه •• وأن فى داخل سلامة انسان أكثر من الرجل •• غير أنها احتفظت بهذا الاصرار الأخير ولم تبحه لهند •• أنها سنصل الى سر هذا الانسان فى داخله مهسا كلفها ذلك وقت أو ما أو جهد •• وجاءته هند لتأخذ طاولة الضعام ولتخبره أن عليه أن يستريح بعض الوقت لأن ربما تريد أن تقضى معها بعض الوقت وتمايلت عليه وضحكت •• وكانت المرأة الجميلة كالطبيعة الجميلة تقع دائما نهباً لقوى الشر حولها •• ودخلت المرأتان فى غرفة النوم وكل منهن ترتعش وترتعد ولم يكن الجو باردا الى هذا الحد

•• كان الضعف يدخل والرغبة تتلوى •• أكان الضعف شيء
عادي •• أم أله طبيعة لا تتخلى عنا •• خلعت ريمًا جذاها
واحتضنت فراشها بالتخت برقة •• وسالت الدموع من عينيها
كالسيل •• وألقت هند بجذائها وخلعت فستانها ولم تذهب إلى
الفراش •• قعدت على المقعد أمام المرآة تتزين كما تتزين
لرجل ••

وقالت بحده لريما :

— إلى متى تظلين حبيسة البيت •••

ولم ترد ريمًا لكنها تنهدت بقوة واستجمعت بعض قواها
ودفنت وجهها في الفراش وانقلبت على بطنها في محاولة للنوم
•• إلا أن أجزاء من الجسد الناعم الطرى لم تلتصق تنم ••
إن الحياة تنبعث منها ورغبة الجسد القوية •• آه لو أن أحدا
شد شعرها بعنف •• وطوحت بشعرها الأسود الفاحم فانسدل
على ظهرها وارتمت أجزاء منه على الفراش الناعم •• كل شيء
ناعم ورقيق وهادئ هذه كل حياتها •• وراحت قليلا في
أفكارها ثم انقلبت على ظهرها وقالت للمرأة التي تتزين مجيبة
على سؤالها :

— وماذا تريد أن أفعل ؟

هند — ابشئ عن مخرج لحياتك ••

ربما - طالما زوجى على قيد الحياة فأنا لا أستطيع أن
أخرج عن تلك الدائرة .. سأظل ألوذ بضعفى وكل ما أبدله
مع هذا المضعف سبيل من الدموع .. ان ضعفى هو سرى
ومكنون حياتى .. انه منتهى القوة التى ألجأ الى دعوى ..
أكرم لى وأفيل .. وبهما بلغت بن الحاجة الى رجل فانى لن
أقدم نفسى الى رجل غير زوجى حتى ولو كان غير قادر على
ممارسة الحياة معى كرجل ..

هند - وهذا ما حدث لك من أوائل يوم تزوجت فيه ..
لقد تزوجت رجلا مريضا ..

ربما - هذا قدرى ولست نادمة عليه .. ان زوجى قادر
على ممارسة الحياة الانسانية فقط وهذا هو قدره .. يكفى
ألتى تزوجت من رجل مناضل من أجل الحق والحرية والعدالة
.. غلقد عرضتى أشياء وخسرت أشياء .. وهذه هى حياتى ..

هند - الى متى ..

زينا - الى أن يشاء الله .. أنا قانعة بحياتى .. وأنا
كفيلة بمعالجة أحزاني وحاجتى و .. أقدم ضعفى لنفسى
ولا أقدم ضعفى لرجل مهما كان ..

هند - لكنك تقدمين ضعفك لى أحيانا .

ربما - هذا أخف وطأة ..

وهزت. هند رأسها وخلعت قميصها فأصبحت عارية تماما
وألقت. بنفسها على الفراش بجوار ريماء قائلة: .
— كات هذه المعانى قريبة منى وأنا صبية قبل أن أدخل
الحزب و .. هذه المعانى المتماسكة والطيبة والكيئونة الى
آخر ذلك .. لا أعرفها لقد أصبحت المرأة فى نظرى .. انهم
يريدون المرأة خرابة ..

ريما — ألم تندفعى الى بريق الاجتماعات والمؤتمرات
والشعارات .. ألم تنخدعى ..

هند — أنففعت للكبت. الذى كنت أعيش فيه فأقت تعرفين
بنات العشائر فى أى مدينة .. وانخدعت لأتى جاهلة بالمجتمع
أيضا لأنى بنت عشيرة فى مدينة .. ماذا تتوقعين من بدوى
جاءوا به من الجبل ليأرب على تولى الأمور ومنحه سلطة ..
ماذا تنتظرين من حيوانات تقدم لهم فتيات صغيرات مراهقات
لا يعرفن شيئا .. قاموا بتدريينا على ضرب النار والاسعاف
والعدو والقاء المحاضرات والشعارات .. كات الواحدة
منا تتصور نفسها بطة أو مثلا .. وفى خلال هذا النشاط
وهذه الأفكار المتداخلة والغرور والمراهقة والمال والسيارات
والوظائف والمزايا يهتك. أعراض العذارى .. لقد أتوا بكل
أنواع الشذوذ من خيامهم وجبالهم وظلامهم ليشوهوا كل فتاة
دخلت اليهم وتخرج الفتاة من هذه الحمى بأن ذلك شىء عادى

وأن هذه هي الصورة المثلى للمرأة في ظل المجتمع الجديد ..
صعوا في النهاية مجتمعا جديداً تسلكه الرذيلة .. أو يبدأ من
الرذيلة وعليه أن يسرى في المجتمع كله ..

ريما - مجتمع لا يخاف .. المجتمع النظيف لا بد
أن يخاف ..

هند - يعنى المجتمع القذر لا يخاف ..
ريما - نعم لا يخاف الله .. من خاف الله فى كل عمل
من أعماله حتى فى الكلمة التى تخرج من فمه حفظه رب السماء
من كل سوء .. هذا ما يجب أن تتعلمه ونحن صغار ..

هند - لم أتعلم هذا .. لم تكن تقام الصلاة بصورة
منتظمة فى بيتنا .. وكان أهم شىء ارتداء العباءة ومداراة
الوجه والعين قدر ما يمكن ..

ريما - كان يجب أن تتعلم ونحن صغارا حتى يكبر معنا
الحياء والخوف ..

هند - مصيبتنا أننا نخاف الناس .. أشعر أن الحياة
كبرت على لأن الناس يخافون الناس .. ولو كنا نخاف الله
حقا لكأنت الحياة ملك أيدينا ولنشأت قيم غير هذه ..

ريما - دعك من هذه الأفكار الكبيرة علينا .. تعال ..
وارتفعت ضحكاتهما وسرى الشوق بينهما وخلعت كل

منهما ملابس الأخرى .. ودخلتا تحت الغطاء ترتعدان ، ولادت كل منهما بالأخرى فى نشوة وشهوة وشبق أشد من الضعف .. لقد كان الحدث اليومي فى المدينة عنيقا .. ففى شارع الوئيس حيث يوجد الكانين تتلاطم أعمال العنف كموج البحر .. وفى هذا الحى الهادى الراقى تقترف النساء الجميلات ما هو أشد عنفا وبوهيمية .. هل كان الحدث اليومي فى المدينة قوى وجارف .. هل الحى الجميل كالحى القبيح .. وأن الناس فى كل الأحياء يلجأون الى كل الحالات التى تؤدى بهم الى لا شىء ..

ولما أمس الليل هربا سلامة وهند فى عربة أجرة .. وكانت هند تشعر ببعض التعب كالذى أصابه بعض الانفلونزا .. ورغم ذلك طلبت من سلامة بأن يعرجا على المحل .. وهناك سعدت كثيرا بالحنوت وأكثر بنظافة السندرة وفرشها أثاثا جديدا .. وشعرت ببعض التعب الذى ألم بها بعد الخروج من بيت ريماء فاستندت على سلامة بالسندرة فاحتضنها وقبلها غير أنه ربت على ظهرها وكأنه يذكرها بتأخر الوقت فهزت رأسها ولملمت عباؤها التى وقعت ونزلت وهو يمسك بها وتواعدت معه أن يلتقيا غدا فى المحل صباحا وقبل أن يفتتح بعد الغد .. وذكرته بأن هذه عادة المدينة فلنفعل كما يفعلون .. وركبا عربة ونزلا فى حيها وقصد كل منهما بيته .. وتأكد لسلامة وهو يسير الى نزله أن كل شىء له ثمن وأنه ضعيف وعليه أن يقبل

شروط الأقوياء .. وعلى فراشه تساءل .. هل هذا حب .. هل هذا حب المدينة أو حب هذه المرأة .. وتألم لأنه بدأ يفسق وعليه أن يتزوج بها حتى يقضى على العلاقة المشبوبة .. إذا ما فائدة صلاته .. ان الحب أكبر من ذلك بكثير .. لماذا يصنع الانسان هذا الحب .. هل تعاون الجميع على بناء الحب المملوء بالرغبة .. أم أن هذا ليس حبا بالمرة. وأنه علاقات على طريق الحياة حتى يصل الناس الى أهدافهم المادية .. أم أن هذا نوع من الحب ولكنه نجري .. صنعه الناس بينهم ليقضى كل منهم حاجته ويمضى .. هل هناك حب نخفيه فى قلوبنا وحب تشدق به فى أفواهنا نلعب به وتلاعب بالناس .. الحب لا يسكن أن يكون نجريا .. ليس حذاءا تظلمه حين تمام وليس بصقة على قارعة طريق .. الحب هو الحب وما نفعه هو لعب تشدق به وشباب تفجر به وسلوك تفسق به .. وقام الى نافذته وأطل منها قليلا .. وقال وكأنه يعلن على الملأ :

— أيها السادة حين ودعت هند لم أسخر منها ولن أزدريها. .. انها تسير سيرا طبيعيا فى طريق الحب المتعارف عليه وعلى أن أتزوج بها فى محاولة لاصلاح ما بينى وبينها .. — وفى الصباح كان سلامة وعبد اللطيف قبل السابعة. يفتحان الحانوت .. وتقدمه سلامة لفة نقود لشراء بعض الأواني ومكتب صغير به، درج .. وجماعته هند قبل الثامنة فلنهر بها وعرض عليها الزواج فأخبرته أن الزواج فى أوراق رسمية له

شروط ويأخذ وقتا واجراءات حكومية ناهيك هل يرضى أبى وأمى حيث أنهم يفضلون رجال العشائر .. وقد لا يتقدم أى رجل من أى عشيرة .. فانهم يفضلون أن تبقى ابنتهم بلا رجل خوفا من المغامرة بها فى تزويجها من رجل غريب أو حتى من المدينة .. وأخبرها سلامة أن ما حدث بينهما وما سيحدث يخالف الدين ولا يرضى عنه الله .. وفكرت هند كثيرا فى كلامه الجديد عليها وترك أثرها طيبا فى نفسها وفكرت قليلا وهى قاعدة قبالة وقالت :

— لقد كنت أفكر فى الحرية .. وأنت الرجل الذى ستأخذنى اليها ..
سلامة — ألم يكن لك قلب فى يوم وبصيرة لتعرفى معنى الحرية .. ليس هذا حرية ..

الحرية أن أدوس على قيم وأغضب الله .. خذى من الحرية. ما تشائين على أن لا تغضبى الله .. يعنى لا أسرق ولا أنهم ولا أزننى و .. ولا أقتل .. و ..
هند — ما حدث بيننا زنا .. تقصد ..

سلامة — هذه حقيقة .. نعم زنا .. وطبعنا أنا جهزت السندرة كما قلت وأن الافتتاح يجب ويجب .. هذا ما فعلناه بأيدينا .. أليس فى أيدينا أن نتزوج .. حتى تكون حرية مشروعة لها قيم ..

هند — لو كان فى يدى الزواج لفعلت .. قلت لك زواجى

فى أيد اجراءات حكومية قد تطول الى عام .. فهل أنتظر فى
علاقتى بك عام .. لا أستطيع .. ومن الناحية الأخرى أبى
وأمى يرفضون تماما كما قلت لك ..

سلامة : ما الحل اذا .. أرجوك يا هند أنا غريب ..
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من زنا فى غربته لا رده
الله غانبا .. وان رده غانبا لا رده سالما ..

ما رأيك فى هذا ..

هند وهى تتأمل الرجل :

— أنت تخرجنى من دائرة الاغتصاب .. انك الحب بعد
الاغتصاب .. لقد اغتصبونى فى الحزب وأجهزة النظام المختلفة
أقول لك سرا .. لقد فعلوا بى كل أنواع الشذوذ .. لقد
مارسوا معى من الخلف .. هل تعرف لماذا .. لأن المرأة
لما تتزوج ليس معقولا أن تطلب من زوجها أن يأتها من الخلف
وهى تكون فى حاجة الى ذلك فعندما تزداد بها الحاجة
تذهب اليهم .. حتى تكون متعلقة بهم أو تحت قبضتهم هكذا
المهافة التى سلطها عباس على رقاب العباد ..

وصمت سلامة متألما غير أنه قال متجاسرا :

— يرحمك الله ويرحم الناس وأنا .. وسكت هنيهة
وتابع .. أنا لا أستطيع أن أستمر فى هذه العلاقة دون زواج
وأريدها أن تستسر بالزواج فهل توافقينى .. ان لم توافقى
فهذا هو المحل وهذا مفتاحه .. بالله ..

هند والدموع تزرّف من عينيها :
لا .. لا .. الله .. لا أستطيع .. نعم سأفكر .. ولكن
قضيتى .. قضيتى ..

سلامة - أى قضية ..

هند - قضيتى مع الذين اعتدوا على ..
سلامة - انها قضية آلاف الفتيات .. أقصد النساء
بالمدينة .. لو قتلت واحدة منكن واحدا منهم لسقطت
المدينة .. أما علاجكم فأعتقد أن الطب لديه علاج لهذه
الحالات ..

هند - والله هذا رأى صائب .. والله هذا رأى واقعى ..
سلامة - جئت الى بلادكم أحمل قضية الخوف من
الحرمان والجوع فأجد فى بلادكم قضية الخوف من البطش
والقمع .. قضية الحرية .. قضايا النساء المعتدى عليهن وقد
يكون الرجل أيضا .. قضية عباس ورجاله .. أى قضايا
حقيره يستلئ بها هذا العالم ..

هند - عباس ورجاله لا يخافون الله .. ومن يفعل ذلك
يلد لبلده الخوف والرعب .. ان أكبر شئ فى بلادنا الانحاء
تحت أقدام عباس ورجاله حتى نكون وطنيين ومخلصين ورجال
ونساء وطن وأمة و .. وغير ذلك يعتبر تهجم على شخص

عباس ويكون مجرم وخائن للأمة .. الكافر فى بلادنا
هو من كفر بعباس أو انتقده .. مهزلة انسانية لا يراها العالم
.. ان بلادنا سجن كبير بلا أسوار .. ولتعرف أنه فتح لكم
حدود البلاد لخدمة مصالحه أولاً ولتعربدوا أيضاً .. انه يعطى
حرية العريضة ليحسى نظامه .. وطبعاً يستفيد منكم فى الأعمال
الصعبة وتجنيد بعضكم و .. و .. انها سياسة لها أغراض
أخرى غير المرئى منها ..

سلامة - عودى بنا الى قضيتنا .. أرجوك تعال نحل
هذه القضية بشرف .. بقدر من الفضيلة ان كانت لدينا
بقية منها ..

هند - غدا بعد المغرب .. لقد أجلت الافتتاح .. افتتح
دون الافتتاح المتعارف عليه لقد اقتنعت بأفكارك .. فى أول
المساء سأكون هنا .. اqظرنى ..
سلامة - ومعك الحل ..

وفى الظهيرة طلع سلامة يستريح من عناء العمل فى تجهيز
الجائوت وذهب عبد اللطيف يشرب شاياً بالمقهى .. وراح فى
آفاقه التى فتحتها له هند هذا الصباح .. فى كل مدينة قضية
.. المدينة هنا تسقط تحت أسوار عالية مخيفة .. أسوار لها
أغلال وأصوات لها نفير وبيوت وقصور وأحياء جديدة هادئة
فى شكلها لكنهم مساقون جميعاً الى أكثر من الخوف ..

الرعب والقمع .. لقد أصبح هتك الأعراض عادة .. وحرية جديدة فهي وسيلة لتطويق المجتمع .. مجتمع مملوء بالجواسيس يهتك أسرار بعضه بعضا .. فالرجل يخاف من زوجته، والأم تخاف من ابنتها .. وهذه هي الوطنية والاخلاص .. ان الانسان في هذه المدينة هو القبر نفسه .. فكيف سيكون حالى .. لماذا آتيت الى هذه البلاد .. لماذا لا أعود ..

وانصرفت هند يحذوها الأمل وتدفعها الرغبة، والحب لهذا الكنانى .. ولما دخلت البيت وجدت أمها متعبة متوترة ولما سألتها عن ذلك أخبرتها أمها بأن سعيد السنوحى قد عاد .. فدق قلب هند وعربدت رياح كراهة فى داخلها وقالت لأمها وهي ترمى بجدائها بصوت يمتلىء ندامه :

— وأين كان هذا الأفعى .. وماذا يريد منى .. ؟
الأم فى حزان وغم :

— حدثنى فى الهاتف عند الضحى وأخبرنى بأنه يريد أن يلقاك غدا .

هند — وماذا قلت له ..

الأم — ماذا تريد منها .. ماذا تريدون .. ألا ينبغى أن ينصرف كل البى سبيله ..

هند — وكيف كان رده ..

الأم — ايش بيك يامعوده .. معنى ماذا بك يا امرأة ..
لا أستطيع الاستغناء عنها انها حبيبتى ..

وخلعت هلد ملابسها وهوت الى جانب المقعد .. وقطعت
طفلتها الشرود الذى ألم بها وقعدت فى حجرها تحدثها وتمسك بذقنها
.. وهند كعادتها لا تنتبه اليها الا قليلا .. تقبلها قبلات جوفاء
وتضسها الى صدرها الخال من الدفاء .. وتسألها الأسئلة
العادية المألوفة من يوم لآخر .. استذكرى دروسك ..
هل تناولت الطعام .. الجده ستعمل لك حمام اليوم .. ثم
تصرفها عنها وتقول .. اذهبى الى جدتك .. أنا متعبة سأفاد
.. وترفض الطفلة الذهاب عنها .. فتزرق فيها .. اذهبى على
.. فتنصرف الطفلة تلويها أحزانها الى جدتها .. كانت دموعها
تسيل على خديها فتسح عنها جدتها وتحتضنها غير أن شعورها
بالألم نحو أمها يكبر معها ويلوى رأسها الصغير ..

— سعيد السنوحى رجل سخي فى الاربعين من العمر
.. ولدته أمه فى احدى حجرات سيدها المنتشرة عند سور البيت
الرفيى الكبير الذى تعمل خادمة فيه .. وكان أبود يعمل جوالا
فى الأسواق لصاحب البيت .. بمعنى أنه يبحث عنه المشايه
والأغنام والابل التى تصلح لهذا الرجل الفنى .. وهو يعرف
أن زوجته .. أم سعيد تذهب كل مساء فى الغرف الداخلية
لتدلك جسد سيده من وراء صاحبة البيت .. غير أنه حين كانت
زوجة الرجل تغادر البيت الى زيارة لأبيها وأهلها فى ناحية
أخرى .. كانت أم سعيد تطلع الى الرجل علانية أمام الخدم

والعاملين لقضاء وقت طويل مع سيدها .. وكان زوجها يرى ذلك بأم عينيه وهو فى كامل الرضا .. وكانت المرأة تهمس فى أذن زوجها عندما تعود :

— من أجل سعيد .. من أجل سعيد ..
ولما كبر سعيد رأى كل شىء بعينه .. كانت الأرض تهتز من تحته والحياة لا تعدو سور البيت الكبير وأمه وأبيه والحجرة التى يعيشون فيها وقيامه ببعض الأعمال الزراعية التى يقدر عليها فى الحقل وقد حصل على الدراسة الإعدادية بصعوبة بعد أن رسب فيها مرتين .. والتقطته الطلائع وأعطته هوية كشاف ووجد فيها ملاذه .. لقد كان بلا هوية بلا مستقبل وصنعت له ما أراد .. وكانت الطلائع خلاصة من ماضيه وتفانى فى خدمتها وكان مستعداً أن يضع كل رجل صاحب بيت كبير فى السجن حتى يعتلى درجة أو يحصل على علاوة .. حتى وصل الى رتبة متقدمة فى الحزب لما بلغ عمره الخامسة والثلاثين .. وأصبح مسئول منطقة .. وله تاريخ حقيق مع فتيات المجتمع ونسائه فقد نكل بالكثيرات وأفقدهن أعلى ما عندهن .. كان سعيد السنوحى ابن قحبة حقيقية وهذا معروف عنه فى الناحية كلها .. الاعتداء والتنكيل وسام على صدره حتى أصبح فى نظر المسؤولين من الأبطال .. ومن خيرة رجال الحزب سيرة اجتماعية وهو متزوج من امرأة جاوزت الثلاثين عمراً .. ولقد مرت بثلاث تجارب مع الرجال قبله ..

وهى تلتقى بكل سائق يعمل عندها حتى وقتنا هذا ..
وللسنوحى منها ولدان وطفلة ..

– وفى صباح اليوم التالى عند وقت الضحى ركبت اليه
ووصلته فى الحادية عشرة .. وكانت عيناه الزرفاوان ذات
الشكل البيضاوى تلتوى يمنه ويسره كعيون البومه وتهيأ لهند
أنهما تنزفان دما .. كان سائلا غريبا كالريم يتكون فوق حبات
عينه .. وشعره الأصفر الثقيل وأنفه الأفطس المخيف وحاجبيه
الكثيفين .. كان وجهه فى جبلته كالعابرة تكتنفها ظلمة
لا تتهى ..

وارتعد جسد المرأة عندما دخلت معه احدى الغرف بعد
أن قال لها بصوت مبسوح .. مرحبا .. هلا بالأخت ..
هلا بالرفيقة ..

هند وهى تلتوى بين ذراعيه حسرة وألما ..

– هلا بالركيك ..

الركيك – أخبارك أحوالك ..

هند – مطيعة وطنية تحت أوامر الحزب العظيم فى أى

لحظة ألبى النداء كما تعلمنا ..

الركيك – ومازلت مخصصة لى ..

هند – كما ترى ..

الركيك – قولى للقحبة أمك أن تكون مؤدبة معى والا

.. وهز رأسه وتابع قائلا .. لولا أنها أمك ..

هند - أُمى قحبة لأنها تريد أن تبعدك عنى .. سامحها
ياركيك الجنوب .. أفت رجل كبير .. فأطرق برأسه الى
الأرض وظهرت على وجهه سيماء السعادة عندما أطرت عليه
وزادته هند فى النفاق وبين كل جملة وأخرى كانت تشتم فيه
وفى أمه كما يفعل كل الخائفون .. أمك وليده كل قحبات
هذا العالم .. كل الناس تقول فى ناحيتكم عندما يمررون على
سور بيت الرجل الغنى .. هذه بلدة سمانه القحبة أم
سعيد السنوحى ..

وأشعل سيجارة وضحك وقال وكأنه يبصق :

- اذهبى يا قحبة الى غرفة النوم .. وضحك .. وابتسمت
موافقة وذهبت وخلعت وانطرحت على الفراش .. قدمت له
جسدا باردا مثل لوح ثلج ثم وقع كالكلب يلهث عند أقدامها
وأقبل عليها وهو يصرخ ولما انتهى طلب منها ملازمته حتى
ينام وانبطح على بطنه يعض فى الوسادة حتى كاد أن يمزقها
وشرب كثيرا من الخمر ثم راح فى نوم عميق .. وذهبت الى
الحمام .. ودق الهاتف فلم يرد عليه أحد .. ثم دق ثانية فتركته
ولم تبال كان عليها أن تخرج من الوحل .. لكنه دق ثالثة
ورفعت الهاتف قائلة :

- هالو ..

كان فى صوت الأم طاقة غريبة :

— هل انتهت يا هند ..
فوجئت بصوت أمها وكادت سماعه الهاتف تقع من يدها :

— أمى .. أمى ..

الأم فى غضب :

— هل ذهب فى غيبوبة ..

هند — ونام .. نام .. ذهب فى غيبوبة ثم نام كعادته

يا أمى ..

الأم — هل تعرفين القضاء عليه ..

هند — يا أمى .. يا .. لا انى خائفة .. خائفة ..

الأم — لو كنت تريدين الانتقام لشرفك لفعلت .. أنت

مازلت تائهة غير رشيدة ..

هند — وماذا أفعل يا أمى وحالى هكذا ..

الأم — انتظرينى سأحضر حالا ..

هند — الهاتف قد يكون مراقبا ..

الأم — لا يهم .. يموت الانسان موتة واحدة .. وعلى

العموم هم لم يغضبوا عليك بعد حتى يراقبوا هاتفك ..

لا يهم بالقندره ..

هند — نعم يا أمى .. نعم ..

كان الركيك تلم به غيبوبة بعد لقائه بأى امرأة ويظل

يعانى منها حتى الضحى العال فى اليوم التالى .. ولما اتهمت

من هاتفها ذهبت الى جراج السيارة، وأحضرت علبة بها بقية من بنزين، وحبلا طويلا وجلست فى صالة البيت تفكر فى قتله بالوقود على أن تربطه من ساقه بالجبل حتى تقضى عليه النار ولا يعرف كيف يفر ولما وصلت الى نهاية تفكيرها .. عادت وفكرت من جديد غير أنها لم تجرؤ على عمل شيء .. وسمعت قرا بالباب الخارجى وصوتا .. لم تتأكد أنه صوت أمها وهرولت الى السور وتأكدت من صوت أمها قائلا .. هند .. هند .. ودخلت الأم قوية لا يثنيا شيء عما فوتته وأحكمت هند الباب وأسرعت خلف المرأة التى هبطت من السماء .. هكذا تهيأ لهند ولحظة ظنت أن هذه ليست أمها .. لكنها تأكدت بأن أمها هى هذه المرأة التى تتأكد من مسدسها وأنه محشو تماما بالرصاص ولما دخلتا عليه لم يكن الا سعيد السطوحى يغيب فى شخيره العان .. وثار الغضب وتقدمت نحوه، وانصب عليه وابلا من الرصاص فى رأسه وصدره وصرخ وعلا قليلا برأسه ثم هوى وجأر وخار يلتوى يمنه ويسره ثم ارتقى على ظهره يغطيه الدم الغزير .. لند مزقت الأم جدارا بشعا من الظلم والاعتصاب والمهانة اصاب بينها وعشرات من البيوت غيرها .. انتهى واحد من المنحدرين السفلة فى هذا البلد .. هكذا قالت الأم وتراجعت عنه وهى أكثر قوة وهند تغطى وجهها وعينيها وتتهالك على مقعد بالصالة .. ونهرتها الأم بقولها : لماذا تقعدين هنا أليس أجدر بك أن تلمسى خالك وتقلبى الى البيت .. قومى .. قومى .. من الباب الجانبى

أخرجى •• دعى الباب الرئيسى مقفولا •• وأشارت بيدها الى
الباب الصغير •• قومي •• ليس هناك وقت •• نرجو من الله
الستر •• اذهبي •• وتمايلت خائره القوى وسقطت عند الباب
الداخلى الواصل للجنينة ثم قامت •• وتلفتت يمينه ويسره فى
الشارع الجانبى فلم ترى أحدا •• لقد كان عاديا أن يسمع
الجيران هذه الطلقات فى أى بيت حيث أن أصحابها يقومون
باصطياد الطيور التى تقف على قسم الشجر المتناثرة فى تلك
الحدائق وحول البيوت •••

وبقيت الأم بعض الوقت تعدن من ملابسها وتؤكد من
موته ولما شعرت بأن الجو عاديا ألقت نظرة على السور من
نافذة المطبخ ومشت بخطى ثابتة نحو الباب الذى طلعت منه
هند •• غير أنها وجدت امرأة بدوية تسوق أمامها بعض الماعز
•• فرجعت قليلا وأعدت قفل الباب حتى انزوت تلك الأعراية
عن الرؤى •• تم تقدمت الى الشارع قائلة •• حمدا لله ••
حمدا لله •• وابتلعها الشارع الخاوى ومشيت وسطه متظاهرة
برباطه الجأش •• ووصلت الى ميدان صغير فيه دخلت محلا
للبقالة •• شربت الماء وتناولت الكولا واشترت بعض البقالة
وضعتها فى حقبيتها وانصرفت ثانية متظاهرة بالقوة •• انصرفت
الى زوايا الشوارع الأخرى بالحى •• وتلفتت يمينه ويسره
بحثا عن عربة أجرة •• ولم تسر دقائق حتى ترجلت احداها الى
وسط المدينة ••

الفصل الثاني

وفى قلب العاصمة غابت عن كل الأنظار .. دخلت فى
حوارى وأزقة لم ترها من قبل .. قصدها كى تشعر بأنها ذابت
وسط الزحام ولكى تشعر بأنها ألفت بفعلها خارج البيت فى
المدينة الواسعة قبل أن تذهب الى بيتها .. وكان الليل يقترب
من النهار وهى مازالت تمشى من مكان الى آخر متظاهرة بأنها
تسوق .. وبدأت الشمس تدخل أفق المغيب .. ومرت سحبات
ثقيلة فى عنق السماء .. ودقت عجلات المركبات الأرض بقوة
.. وكان أرض النهار تهتز فرحة على أحداث اليوم .. ترى
أى أحداث فى الغد .. وقصدت أخيراً سوق النساء لتشتري
هدية لابنتها وللطفلة الصغيرة .. وتمنت المرأة لو أنها فعلت ذلك
لكل فتاة وامرأة لها قصة فى مدينة غاب فيها النور .. لكنها
زفرت نفسا الى أعلا وقالت .. على كل أم أن تفعل .. انها
تعتقد أن كل البنات صغيرات على هذا العمل .. لو فعلت كل
أم أو كل فتاة لماتت كلاب المدينة غير أن المرأة هدأت
قليلا بعد أن تخيلت أن كل أم ستفعل وأن المدينة أصبحت منوره
وأن .. وأن .. وفكرت فى زوجها الذى سيصل غدا ..
ماذا تعد له من طعام وماذا تفعل له كزوجة .. اشترت أدوات
الزينة كالمساحيق الجميلة والعطر .. لماذا لا تتعطر له وتزين

•• انها منذ زمن لم تفعل •• ألا يحق لها ذلك •• لقد انقشع اليه •• شيء من الظلام القابع فوق صدرها •• لكنها بعد ما ركبت الباص متوجهة الى بيتها أيقنت أن عملها هذا لن يتكرر من الأخرىات وقد لا يحدث مرة ثانية معها •• ان مدينة يبحث الناس فيها عن الدراهم لن ترى النور •• فلن يذهب عنها أهلها ولن يرحل عنها المهاجرون •• ان الذين يبحثون عن أى حقيقة يتهمون ويعتقلون •• يقيدون بالأغلال داخل البيوت والفنادق والأسوار غير الذين هناك فى المعتقلات والسجون •• ان الأبطال هم أطفال هذه المدينة من أمهاتهم يعتقلون •• ان الحيطان الباردة تهرب على الأطفال وقلوب أمهاتهم يحترق والمدينة خرساء وعباس بطل فى عيون نفسه وزبائنته •• وكان على الناس أن يحدوا حلا وسطا أو حكيما •• لكنهم لم يتحدثوا •• ولم يكن هناك غير أن يخنعوا •• الخنوع لا يكلف الانسان غير أن يكون قفاه مصطبة تطرق عليها قباقيب الزبانية والمنحدرين •• وهذا ما يفعله الانسان فى عالمنا الصغير ••

ومرت الأيام كان سلامة فيها سباقا للتمتع بهند فى فى السندره •• وكان يسمع منها عبارات لم يسمعها من قبل •• كانت شفاه العاشقة عطرة دائما بالندى والعطر •• لقد سعد بمباهج جديدة سبر غورها ولم يتورع عن الخوض فى الفجور واللذة التى لا تنتهى يوما بعد آخر مع امرأة لم تحب من قبل ولم تعشق لكنها كانت تغضب فجن جنونها به •• فأشبع

ملذاتها وأطعمته ألد الطعام وأشهاه وأغدقت عليه الدراهم ..
لقد غاصت هند في خمر شبابه وارتوت وكان عشقها له يزداد
يقدر ما كرهت الذي اغتصبها وهتك عرضها وكانت تقول له
دائما وهما في قمة اللقاء :

- هل تجبني

- طبعاً

- صحيح

- وحياتك

- ألم تعرف امرأة قبلي

- في حياتي

- أيمكن أن تكون لي أبدا

- طبعاً

- ومن أدراني

- أحبك

- قولها ثانية

- أحبك يا هند ..

وغرقت وغرق سلامة وكان بينهما عقد عرفى أنقذهما من
الشعور باقتراف اثم .. لكن سلامة كان يشعر بأنه زواج مشوب
.. لأن الأساس فى العقد الاستمرار .. وكان يبعد عنه أى
ندم بقوله .. والله أنا أفوى الاستمرار .. أما هى فكانت
لا تفكر فى أى شىء من الندم .. كانت تعتبر الزواج صحيحاً

طالب لم يستطيعا زواجا عليا توافق عليه الحكومة وتقبله
الأسرة .. وكان قد شهد على العقد رجلان من كان واحد
يدعى محمد سامي يعمل محاسبا وآخر يعمل فى محل للحلوى
يدعى سيد محمود وكلاهما رجل طيب يجب الخير للناس
جميعا ..

وفى ذات صباح شاهد عبد اللطيف هند وهى عارية تماما
حيث كانت تمر من الحمام مجتازة المحل الى السندرة .. فاشتعلت
فى صدره الشهوة وتأوهت دائرة الحقد لديه على سلامة ..
وكان عبد اللطيف ينام فى المحل عندما يكون تعباً من عمل
النهار .. وهو يعلم أن سلامة يلتقى مع هند كثيرا كل صباح
ولما كان سلامة يدخل ومعه هند يجذانه يرقد قرب الحمام
على منارلة وضع عليها فراشا للنوم .. وكان يعمل كأنه نائم
بأن يعلى درجة شخيريه .. وكان الرجل والمرأة يعتقدان بأنه
نائم فوما ثقيلاً .. غير أن عبد اللطيف تعود على ذلك وكان
يستمتع فى الاستماع اليهما .. وكلما مرت الأيام زاد الحقد
فى داخله وانتوى أن يفعل شيئا من أجل نفسه .. وكانت المرأة
تقص على سلامة كل يوم جزءا من حياتها فعرف سلامة كل شيء
عنها وعرف أنها هى وغيرها ضحية نظام فاسد وأن مجتمعا
معظمه من عشائر كان سيكون من أفضل المجتمعات على وجه
البطيخة لو تعامل النظام مع المجتمع بالحسنى . وانه فى العشائر
والقبائل لتجد أسرا ومجتمعات متماسكة قل أن تجد مثلها فى

فواحى العالم المختلفة .. لكن كيف تتعامل مع هؤلاء ونجذبهم الى الحياة والحضارة أو المدينة مع الحفاظ على التقاليد .. ابن الملك ومجتمعه لخير مثال لهذه المجتمعات العشائرية المتحضرة .. لقد جذب مجتمعه نحو الحضارة وهو مازال متمسكا بمبادئه واطاره الذى أصبح أشد قوة مما قبل .. وهذا هو الفرق بين النظام الفاسد والنظام الخلاق .. وكان هذا الحديث يدور بينهما كثيرا وكل يوم .. كان كل منهما يتطلع الى مجتمع يحويه ..

سلامة - ليتك تدركين ما أعانيه ..
هند - من أى شىء تعانى .. لقد أعظيتك كل ما فى الحياة ..

سلامة - ورغم ذلك فانى أشعر بالتوتر والقلق حولى من فوقى وتحتى ..
هند - لماذا الا تعيش يومك .. فأنا المرأة وهذا المال والطعام والعش الجميل ..

سلامة - مثل عش العصفور على فروع الشجر ..
هند - أنت خير من غيرك .. أنت لم تر أهل كانه فى المدينة انهم يقومون بأعمال صعبة للغاية من أجل النجاح برحلتهم .. ويعيشون فى أقدر الفنادق وأحظها ..

سلامة - ما زلت مصرا على أنى أعيش فوق كهف عفريت
•• فأنا أتلقت خلفى وحولى خوفا من الذين يراقبون الناس ••
طيلة حياتى عشت فى كان لم أجد هذه الملاحقة للناس فى حياتهم
ولم يسألنى أحد عن اتجاهى •• ان الحياة هنا هى الخبل
الحقيقى •• صحيح أن الناس تعيش فى خير جديد عليها
ويأكلون ما يريدون ولكنك تشعرين أن رجلا خلف الجدار
المجهول يتابعهم وبوصى بعلفهم وكأنه سيذبحهم فى الغد ••
أشعر أن مجتعا بكامله يعلف كالخرفان لأنه سيذبح فى
يوم لا مفر منه ••

هند - اذا كان على الذبح فان الجميع يذبحون قبل مجيء
هذا اليوم •• اليس الاغتصاب للمرأة أو الرجل هو أقصى
أنواع الذبح ••

سلامة - وهل هناك رجال يعتصبون ••
هند - نعم •• ألم أخبرك بأنه جاء بأناس ليس لهم أى
هوية ليكونوا عمود حزبه •• وهؤلاء الرجال لا قيم لهم ولا
تربية هم من أخط وأحقر أسر هذا المجتمع •• ••

سلامة - أريد أن أهرب ••

هند - خذنى معك ••

سلامة - وطفلك ••

هند - نأخذها معنا ••

- سلامة - وأمك وأبوك ••
- هند - الى أين نهرب ••
- سلامة - الى بلاد الملك ••
- هند - أين هي ؟ ••
- سلامة - عبر الحدود ••

•• هند - أهنأك حياة أعظم شأنًا حقا ••

سلامة - حياة اسلامية حقيقية •• انهم يطورون حياتهم
ويحافظون على أعراضهم •• ويتقدمون في كل مجالات الحياة
والملك يصل كل ما يربح مجتسهه •• لا حزب •• ولا
طلائع •• لا اتجاهات •• الاتجاه أخلاقي •• والسلوك سوى
والصلاة في المساجد كل وقت للناس جميعا •• الصلاة في
بلادكم تطرف •• يالها من مصيبة ••

•• هند - أنا لم أصلى في حياتي ••

سلامة - لماذا ؟

•• هند - أبى يصلى في المسجد •• ليس كل الأوقات يصلى
وأبى لا تصلى أبدا •• فلم أعرف الصلاة وفي الحزب تركونا
وشأننا •• ومن كانت تصلى جعلوها تترك الصلاة •• و ••

سلامة - اذا لم أستطع الهرب الى بلاد الملك •• لى أن
أعود الى بلدى ••

هند - فى كل الأحوال خذنى معك .. أرجوك ..
سلامة - عليك أن تترقبى الرحيل فى أى وقت ..
ومرت الأيام والشهور وجاء شاكر حسون الى الفندق
ودار بينه وبين سلامة حديثا قد يكون مكررا :

شاكر - أليس لك أصدقاء ..

سلامة - لا ..

شاكر - هل أنت سعيد بعملك فى مطعم ؟ ..

سلامة - أفضل من لا شىء .. وكان سلامة قد أخبره

بأنه يعمل عاملا فى مطعم ..

شاكر - حرام هذه الوجاهة وهذا الكبرياء يكون عاملا

فى مطعم ..

سلامة - وماذا أفعل ..

شاكر - اتجاهك غير واضح .. ومازلت أبحث مع أولاد

كان الذين يتعاونون معنا عن اتجاه عبد الرؤف فى بلاد كان ..

سلامة - ليس لى أى اتجاه .. فأنا رجل على الله ..

جئت من بلادى لأعمل وأعود ببعض النقود ..

شاكر - تعاون معنا أولا وسأدير لك وظيفة محترمة فى

أى دائرة ..

سلامة - أنا .. أنا ..

شاكر - هل دخلت العسكرية فى بلادكم ؟

سلامة - نعم ..

شاكر - هل تحب أن تلتحق بها لدينا ؟

سلامة - لست خبيراً فى العسكرية ولا أحبها ..

شاكر - فى أى سلاح خدمت ..

سلامة - الدفاع الجوى ..

شاكر - ما هو النظام فى الدفاع الجوى .. بأى نظام

تجهزون كتائبكم ..

سلامة - كنت أرى الصواريخ مقامة فى الدشم وكذلك

أجهزة الرادار فى أعلا كل تبة ولكن لم أعرف أى نظام

ولا كيفية العمل بها ..

شاكر - كيف ألم يكن سلاحك ..

سلامة - كان عملى هو توجيه معنى الكتيبة ..

شاكر - ألم يكن لك أصدقاء .. أقصد زملاء فى

العسكرية يعملون هنا ..

سلامة - كان لى صديق يدعى سيد حبيب ولكنه فى

كان .. خرج من العسكرية ليعمل مع والده فى أرضه الواسعة

فى قرية أولاد سراج بمحافظة الدقمية ..

شاكر - أنت تكثر فى الاجابة عن أشخاص لا يهمنى

أعرفهم ..

سلامة - لا أبدا أنا أعطيك بعض التفاصيل ..

شاكر - يعنى ايه توجيه معنى ..

سلامة - رفع معنويات الجنود وحل مشاكلهم وتوزيع الصحف عليهم ومتابعة وجبات الطعام اليومية لهم ثم بعض المحاضرات عن العدو والصهيونية والقومية ...

شاكر - ممتاز .. ممتاز ..

سلامة - ممتاز ..

شاكر - ما رأيك أن نستهن ذلك فى عسكريتنا ..

وراوغه سلامة قائلا - دعنى أفكر ..

وفى هذه الليلة كان الوقت يقترب من العشرة واتفق

شاكر أن يقابله مرة ثانية للحديث ..

ووصل شاكر حسون الى مبنى ضخم بأحد الأحياء الجديدة ليكتب بعض التقارير فى مكتبه هناك .. وكان معظمها عن حال أولاد كان فى العاصمة .. ولما انتهى عاد فى الصباح الى فندق آخر بالمدينة ليزاول عمله .. وشعر سلامة بضيق فى النفس وانطلقت بين حاجبيه نظرة شاردة .. ونساءل .. هل أكون أذافا كى أكور ناجحا .. ونزل ومشى فى شارع ضيق اخره تان الظلام حالك والبيوت صغيرة ومتفرقة لها أبواب صدأ صنعت من حديد وصفيح وسمع أصوات غريبة فارتعد جسده ودق قلبه خوفا .. واستدار ببقية رأس يحملها الى الخلف وتعثرت قدماه .. وكانت الأنوار ساطعة فى بعض جنبات الشارع وأمسك برقبته

ليدافع عنها وتقدم نحو الفندق وكأنه يستغيث بفراشه .. وفى الصباح خرج من نزله حزينا بأثسا .. وتساءل هل يعود حقا الى بلاده .. ان الخوف فى هذه البلاد لشديد .. ولكنه قال .. فى هذه المدينة محلا يدر على ايرادا كبيرا ولا أستطيع الحصول عليه فى مدينتى .. وتطلع عبر نافذة الباص باصرار .. كانت عيناه حادتان ثاقبتان وكانه وهب نفسه لأكثر من الخوف وراح يبكى كثيرا !! فاستراح قلبه قليلا من غضاضة شعر بها .. ونزل الى الشارع يضرب الارض بقدمه دلالة على أنه سيواصل الى النهاية .. لقد انتظر طويلا فى بلده وكان نصيبه صفرا .. وذهب الى المساجد يبحث عن النور .. فوجد نور الله لكن الناس اتهموه بالتطرف لأنه يؤدى كل صلاة فى المسجد .. فاستغاث برب السساء فأهسه بالرحيل فكيف يعود .. وقال يحدث نفسه .. ياقاتل يامقتول .. هل هناك بعد الموت موت .. أنها موته واحدة .. وصرخ لكنه صرخ الى تحت حتى لا يسمعه أحد .. وقرر وضع أفكار الرأس جانبا .. ان الناس يمرون الى البناء فى حياتهم حينما يتوافر عامل واحد من عوامل الحياة .. ان الناس تصرخ وتبحث عن أفكارها لأنهم لا يجدون الأعمال التى تنفجر فيها طاقاتهم .. وكرة أخرى كما يفعل حين تتصارع الحياة فى داخله .. انطلق يمشى بخطى ثابتة الى الأمام وأصر أن يبلأ هذه الأمام قوة نحو الحياة .. وكفى صراخا .. مرة واحدة تكفى حين ولدته أمه ..

ووجد لطفى فى المحل يعد السمك وينظفه .. والمحل عادة يبدأ فى شئ السمك عند العاشرة ويستقبل زبائنه فى الحادية عشرة حتى بعد المغرب بقليل .. واشتعلت النار وتقلب السمك عليها وتنفس المارة وأهل الحي رائحة الشواء فانكبوا كأرقال ينتهمون لحمه الطرى بأرغفة الخبز الساخن والسلطة الملتهبة بقروان من الفلفل الأخضر .. وكان لطيف يقف على النصبه وسلامة يقدم طلبات الزبائن .. وكان أهل المدينة لا يعرفون كيف يأكلون السمك مثل الكانيين .. يتركون اللحم بين أشواكه ولا يجيدون امتصاص المخيخ من الرأس .. وفى كل يوم يجمع عبد اللطيف الرؤوس السمكية ويأخذها معه الى الفندق ليبيعها للكانيين بسعر رخيص .. وكان كل منهما يرتدى معظفا أبيضاً .. فيتوهج وجهه سلامة من نار الصاج ويتصبب العرق منه فتعلو سيماءه بشيء من الخجل فتبرز عيناه فى وجه الزبائن .. وكان الكلام يخرج من فمه مبعثرا وقد أضيف الى كل كلمة حرفا مرحبا بزبائنه :

— مرحبا .. اتفضلوا .. اتفضل ..

كان سلامة أقرب الى بائع الكشرى أو المهلبية وأطلق أحد الزبائن من كان على سلامة اسم ملهظ وتعنى ملهظ أن كلماته التحبلى بوجهه الأحمر بعينه كالرجل الذى يلهظ طبقا من المهلبية .. وكان سلامة يضحك من كل قلبه عندما يسمع هذا الاسم من زبائنه ..

— نص يا ملهط

— السلاطة يا ملهط

— واحد خبز يا ملهط

— سلام يا ملهط ..

— الشطه يا ملهط

وكان يطلق على عبد اللطيف .. المهيب .. كل شيء فيه
غير مرتب وحوله نار ودخان وسماوات وجهه القروية ولهجة ..

— اذيك يا معلم ..

— اشوى السمك أوى

— يا عبد اللطيف العبرة ..

وكان يطلق على عبد اللطيف .. المهيب .. كل شيء فيه
اليوم التالى الى سلامة بنصفه فيعطى لطفى أجره ويأخذ نصيبه
ويذهب الى البنك لتحويله الى كاز .. وكان الوقت يمر عليهما
سريعا لكثرة العمل وحلاوة المكسب .. وفى الأسبوع الواحد
يحادث سلامة صاحبة المحل ليطمئنهما على العمل مرة عادة أو
مرتين .. وكان لطيف غير لطيف مع سلامة فلم يستطع مداراة
حقده عليه وعادة كان يدور بينهما حديث آخر اليوم .. فيقول
عبد اللطيف وكأنه يهزر :

— أيوه يا عم حد أدك

— سلامة — ازاي ..

عبد اللطيف - أنا بفه لى خسن سنين هنا ما عرفتش واحده
وآنت زى النبل ..

سلامة - الصدفه وحدها ..

عبد اللطيف - يا عنيات كل يوم .. كل يوم .. الصبح
وبالليل ..

سلامة - انها زوجتى ..

عبد اللطيف - العب غير دى ..

ولم يبرز سلامة عقد الزواج لعبد اللطيف حتى لا يكون
دافعا أكبر لأن يوشى به عند صاحبة البيت .. وكان سلامة
يستعمل معه هذه العبارة دائما :

- على العموم هذه السيدة كانت السب فى هذا المحل ..

عبد اللطيف - اذا كان نده روقها ..

سلامة - وهل يضيرك شىء ..

عبد اللطيف - لا .. لا ..

وفى ليلة من الليالى لم يتم عبد اللطيف ليلته ولازمه القلق
حتى الصباح .. يفكر ويتدبر .. أحيانا ينوى أن يقدم فى سلامة
تقريرا .. أو يذهب ويخبر صاحبة البيت .. وفى هذا الأمر
الأخير قد تطرد المرأة سلامة ويكون هو الأول والأخير فى المحل
.. لكنه كان يناف اذا طردت سلامة أن تطرده هو الآخر فلا أفاد

ولا استفاد من هذا التصرف .. وقرر أن يؤجل الأمر فترة ..
 .. كان صوت دائم يهس في داخل سلامة قائلا .. رغم أنني
 أشعر باطمئنان نحو هند فاني أجد في الأمر غموضا .. فهل
 أخفقت قدمت نفسي لامرأة للحصول على رزق سهل .. وهل
 يرضى الله هذا الباب من الحياة .. أم أن ذلك تصرفا عاديا
 واستغلالا حسنا لامكانياتي كرجل .. ان الأمر يبدو مختلطا ..
 فأين طريقي .. وفي يوم قام وصلى الفجر ثم نام قليلا .. بعدها
 نزل الشارع وركب الباص الى المدينة الكبيرة .. كان شيء
 غريب يأخذه وكأنه يسمع صوت أمه ثم بح صوتها ونحبت وقال
 وكأنه يطمئنها :

— أنا بخير لا تحزني يا أماه ..
 في ليلة بعد المغرب بقليل التقت هند معه وكانت حزينة
 فقالت له :

— هل أمت نادم على شيء ..
 سلامة — لا .. أفكر هل نحن على صواب ..
 هند — ألم تتزوج ماذا تريد بعد .. سؤالني لك لأنني أراة
 دائما مهموما ..

سلامة — أحاسب نفسي دائما .. ان صوت أمي دائما
 يهس في أذني وكأنه حزين علي .. وشيء غريب يأخذني
 الى تحت ..

هند - اعتبرنى مثل أمك .. تعالى ونام على صدرى ..
ستجده مثل صدر أمك ..
سلامة - لا .. لا .. لا .. ليس هذا المقصود ..
هند - لا تجعل شيئاً يأخذك الى تحت نحن نعيش ونرى
المدينة جيداً نعيش فى النور ..

كنت امرأة ضيقة الأفق وبزواجى منك أصبحت الدنيا كلها
رحاباً واسعا تضمنى إليها .. لم آكن أعرف أى معنى للسراة
ومنذ علاقتى بك عرفت أى معنى كبير يضيفه رجل على امرأة
تحبه وتريده ..

ولما خرجا كانت السماء قد أرخت مظلتها السوداء على
أرض المدينة .. ولم تكن مصابيح الشوارع الا ضياءاً خافتاً
باهتاً على الجدران .. وكان ضوء المركبات أحمر اللون خاقق
يضغط على نفوس أصحابها بالعصية وعيون المارة متردية بين
الظلام والأضواء وفى يوم حادث سلامة صاحبة المحل فى الهاتف
.. وطلبت منه أن يذهب إليها بعد العمل .. ولما ذهب لم تكن
الخدامة هناك .. حيث ذهبت لتتسوق وفتحت ربما الباب ودخل
مرتبكا ظانا أن عبد اللطيف يكون قد أخبرها بعلاقته بهند ..
وتقدمته المرأة حتى صالة البيت .. ولما جلس قعدت قبالته
وحاولت أن تبسّم ابتسامة صغيرة .. ارتسمت على شفيتها فى
حزن .. لم تكن تلك السيدة التى قابلها من قبل .. ترتدى

ثوباً طويلاً وتلفح بشال كحلى وتضم يديها على صدرها ..
هزلت السيدة وشحب خذاها واستطالت ذقتها نحو الأرض ..
وبدا عليها الحزن والألم وكان صوتها مبجوحاً متحفظه رزينة
وكأفها امرأة جديدة يلتقى بها لأول مرة وكانت يداها المتربعتان
على صدرها تخفى خلفهما قلباً يخفق .. ومما زاد عذابها أن
زوجها أخبرها فى الرسالة التى وصلتها عصر اليوم .. أنه لا فائدة
من العلاج ولما سألتها سلامة :

— كيف حالك يا سيدتى ؟

فقلت له :

— زوجى مريض جداً وسيعود بعد أيام دون أمل فى

علاجه ..

سلامة — لا تقلقى ان الله سيشفيه ..

وولولت بصوتها وهى ترفع يدها الى أعلا :

— ياريت .. ياريت .. أنا أحزن نساء الدنيا .. كان لى

أمل فى شفائه هذه المرة ..

سلامة — ان الشفاء قد يأت فى أى لحظة .. ليتنى أستطيع

أن أفعل لك شيئاً ..

ريما — لقد أرسلت لك لأطمئن على العمل .. وخابرنى

بعد ثلاثة أيام واذا أخبرتك بأن زوجى وصل تعال لتسلم عليه ..

انه رجل طيب وأريده أن يراك .. حتى يطمئن بأنى أعطيت ماله

لرجل طيب ..

سلامة .. حاضر .. حاضر .. أشكرك على شعورك

الطيب نحوى ..

ريما - هذه حقيغة .. هل أحضر لك طعاما ..

سلامة .. شكرا لقد أكلت ..

ريما - وكيف حال هند ..

سلامة - بخير اذا جاءتك فى الغد أخبرها بانى أريدها

سورا ..

ريما - والواند الذى يعمل معك .. هل هو طيب وأمين ..

سلامة - نعم .. نعم .. نحمد الله .. وحياها وانصرف

وشدت على يده .. ولا أحد يدرى كم تشعر نحو هذا

الرجل .. ان حجم شعورها نحو كبير ولا تدرى ما سرد ..

ولم ينسها من البوح به .. الا مرض زوجها وحزنها عليه ..

لقد مضت أكثر من عشر سنين كلها ألم وكبت وانطواء ..

وسعرت بأن قلبها يمتلأ بالحقد والكراهية نحو العالم من

حولها .. وكانت تريد أن تقول لسلامة أكثر من ذلك ولكنها

فضلت أن تكتفم ذلك لأيام قادمة .. ورغم أنها كانت متشوقة

لحضوره الا أن انفعالها هدا بوجوده .. وأخذت الرسالة

لتقرأها ثانية وثالثة وكانت عبارات بعينها تزيد من ألمها ودموعها ..

- لو ابتعت كل ثروتى فلن أشفى من مرضى .. وان

تكاليف العلاج باهظة .. أنا أعيش فى الحياة لمجرد وقت

ينتهى .. ان الالتهاب الرئوى الحاد والمزمين لا فائدة من
علاجه .. لن أبقى فى الحياة كلها أكثر من شهر قليل ..
سأجد فى موتى الراحة الأبدية .. سأعود الى الله ، والأقرب بقلب
وعمل طيب .. ان ربى هو العزيز الحقيقى .. عندما أعود
سأكتب وصيتى لك بكل أملاكى حتى لا يضايقك أحد من أقاربى
يظهر بعد موتى .. أخبرى المحامى بذلك .. كنت أتمنى أن
يكون لى طفل من صلبى أودعه عند الموت ويكون لك عوناً ..
لقد تعبت كثيراً من أجلى وأنى أشعر بأنى أخصنى الموت ..
عندما أعود لن أحدثك أبداً عن الموت لأنه سيكون قريباً منى ..
هناك حديث آخر مع ربى .. رتبى وجهزى لموتى .. وأتمنى
أن أعود وأراك قبل .. انتهت .. آمين .

وتطلعت الى ساعة الحائط مغمومة وأحست بقلبها يرتعش
فهولت الى فراشها وانكبت عليه .. وكلما حاولت التخفيف
من حدة حزنها دخلت فى نوبه جديدة من النحيب .. وذات
مساء جلست الى النافذة تتأمل السماء والأشجار العالية ..
كانت ترى الحديقة كامرأة تتزين .. لكن راعيها تركها ولن
يعود .. كالنهر الذى يجرى بين ضلقات الجبل .. وشردت
أفكارها فى أهلها بالشمس وأمها وزوجها وسلامة وهند ..
وشعرت أنها مهيمضة الجناح ، وأنها لا شىء فى هذا العالم
المترامى .. كل شىء فى هذا العالم اثنين الا هى .. ومن غير
وعى منها قامت تتزين وفكرت فى هند .. لقد تغيرت عنها

كثيراً .. هل انشغلت بشيء .. وراحت تسكك بالهاتف ولم يرد
عليها أحد .. انها تريد امرأة .. امرأة مثل هند .. أى امرأة
جميلة .. انها لا تعرف أحداً غيرها .. وكان عليها أن تتخيل
أى شيء من العنف .. أى شيء يجعلها تبكى بقوة .. فقامت
تلوذ بفرائشها نظرب المخدة بيديها ثم هدأت قليلاً .. وران
الصمت وامسكت برأسها قائلة :

— أنا ذاهبة الى الموت .. ليتنى أرحل من هذه الحياة ..
ثم راحت فى النوم ..

وانهمك سلامة فى عمله وكان ينتظر من يوم لآخر أن
نضبره هند بأن زوج ربما قد عاد .. ولما أخبرها برغبة ربما
فى رؤيتها لم تبال بها .. ومرت أيام أخرى وهاتف السيدة
ربما ليسألها عن عودة زوجها فأخبرته بأن ادارة المستشفى
حادثتها بأنه سيعود خلال أيام .. وكررت عليه أن يخبر هند
أن تتصل بها .. وانقطعت صلته بالسيدة ربما لمدة أسبوع
آخر .. وكانت ربما تشعر بأن انقطاع هند عنها يخفى سراً
لكنها نحت هذا جانباً فلقد كان انشغالها بزوجها وقلقها عليه
أعظم من أى شيء آخر وكانت كل جوانب الحياة الأخرى حولها
ما هى الا أحداث تافهة بجانب انشغالها بهذا الزوج النبيل
ومرضه .. الا أن يأسها من شفائه أبلغها السقم وهد قواها
ولم تعد تتذوق للطعام أى نكهة أو مذاق .. ولم تعد تتناول

منه الا القليل الذى بسد رمقها لتستطيع السير على قدميها ..
الا أنها فى يوم اتصلت بمنزل هند ..
— هالو ..

وردت عليها أمها ..

— هالو ..

— أنا ريما ..

— هلا ابنتى هلا .. هلا .. كيف حالك .. ما حال

السيد أمين ؟

ريما — سيعود بعد أسبوع ..

— هل تم شفاؤه ؟

ريما — لا ليس بعد ..

— شفاه الله .. شفاه الله ..

ريما — أين هند ..

— تعود بعد المغرب كل يوم تقريباً ..

ريما — أما زالت تعمل مع الجماعة ..

— تقول ذلك .. تعود مهدودة القوى وحالها لا يعجبني ..

ريما — لماذا لا تتصل بى ؟

— انها لا تتصل بأحد يا ابنتى .. معذرة يا ابنتى ..

ريما — أريد الاطمئنان عليها .. ليتها تتصل بى حين

تعود ..

— سأخبرها .. الله معك .. الله معك ..

ريسا — فى أمان الله ..

ولما عادت هند أخبرتها الأم .. لكنها لم تتصل بريسا ..
ومرت أيام أخرى، وطالت بينها القطيعة وفى مساء اليوم التالى
وقبل أن تغادر لقاء سلامة .. ارتدت ملابسها وقالت فى حدة
وهى تضرب السندرة بقدمها :

— ابنة الخالة خائبة المدينة سألت عنى بالأمس وتريد
محادثة ..

سلامة — من ابنة خالتك ..

هند — صاحبة المال والجاه والدكان ..

سلامة — اسألى عنها ..

هند — هل ذهب عبد اللطيف إليها ..

سلامة — لا أعرف .. ولماذا يذهب ؟

هند — أخاف من .. قد تعلم بأمر زواجنا منه فتهدم

كل شىء فوق رأسينا ..

سلامة — هل تشعرين بالخطأ .. لماذا لم تأخذى رأيها

فى أمرنا ..

هند — ليس خطأ بالمعنى .. وسكنت .. ثم أردفت ..

— أشاورها فى ماذا .. هى امرأة بلا زوج وقد لا يروق

لها هذا الأمر خاصة وأنتا نلتقى فى عقارها .

سلامة — لم أحسب لهذا الأمر حسابه .. أنا فى موقف

لا يحسب حساب أى شىء غير أن .. اتنى للأسف أريد حق
الاتنفاع فى أى وجهة أصبو إليها .
هند - هذه الواقعة ستكون المواجهة معها .
سلامة - أخشى النتيجة .
هند - هى ابنة الشمال ولن ترضى أن أتصر عليها ..
وقام سلامة فزعاً وأكمل ارتداء ملابسه وقال وهو
يسسكها من رذن قميصها :

- ان مطلبى من هذه المدينة هو المال وليس المرأة .
وأنزلت يده المتعلقة بها ونظرت اليه نظرة ثابتة وقالت
بحدة :

- واذا كانت امرأة تؤدى الى المال فلا مانع من ذلك ..
سلامة - وأنا فى كل الأحوال لم أنزل أرض امرأة خفية
أو بالسطو عليها أنا متزوج منك زواجاً متعارفاً عليه فى المدينة .

هند - لا داعى لهذه المناقشات معك .. وعلى أية حال
ان استمرار القطيعة ليس فى صالحى وسوف أذهب إليها
عندما يعود زوجها .. وهزت رأسها كمن يتدبر أمراً ..
وحملت رأس عبد النظيف ظنوناً وأفكاراً كثيرة .. وثقلت
رأسه بالغيرة والحقد على سلامة وهند وشغل تفكيره كيف
يوقع بهند فى تلايبه وأن يضرب سلامة احدى ضربتين ..
تقرير للسخبارات بكل شىء عن سلامة بأنه يعمل فى المخبرات
الكانية مثلاً أو .. و .. و .. أو أن يذهب الى السيدة

ريما ليخبرها بالعلاقة التي بين هند وسلامة وفى الحالتين يكون المحل من نصيبه وحده .. ومرت الأيام وصل خلالها زوج السيدة ريما وذهب سلامة البه للاطمئنان عليه والسلام .. وقدمته ريما الى زوجها بأنه رجل أمين جعل المحل يدر مبلغاً كبيراً من المال تسيحة للسجود الذى بذله فيه .. وكان الرجل ينام فى فراشه أو يلوذ به .. فوجهه النجل تبرز منه عينين غائرتين ولم تكن اليد التى امتدت لتصافحه غير يد قط أليف تشابكت بها أصابع برزت نحيلة فى عظامها ولمعت .. يعوص الرجل فى فراشه ويكاد غطاؤه يلامس سطح مرقده ويستوى عليه لدرجة أن بطن المرء بأن لا أحد يرقد هنا البتة .. وبحث سلامة عن الرجل .. أين وجه الرجل .. فاذا به مثل لون البفته البيضاء وقعد الزائر دقائق وهو يتألم وخاف أن ينطق بكلمة تكون عبئاً على الرجل فى فراشه وقام يمد يده نحو الرجل مودعاً وقائلاً :

— ألفت سلامة عليك .. حمداً لله على سلامتك ..
 ولم تستد اليه أية يد ولم ينبش الرجل بنبت شفة ..
 الا أن السيدة ريما قالت بصوت خفيض أ
 لقد نام .. نام .. اذهب الى الدور الأول .. انتظرني
 هناك ..

ولما نزل وجد رجلاً يقعد فى الصالون المواجه للدرج
 واتجهت ندا الى سلامة قائلة :

— هذا محامى السيد أمين •• هل السيد بخير ••
سلامة — نعم انه بخير •• لقد قام ••
ونزلت ريما وتهاكت على أول مقعد بعد أن ألتقت على
المحامى التحية •• وقطب المحامى حاجبيه وقال :
— كيف حال الأستاذ •
ريما — الحالة ليست على ما يرام • وترقرق الدمع فى
عينها •• الحمد لله •• وأخفنه أن يسمع ذلك ورفع يده لأعلى
متستسا له بالدعاء والشفاء •

ريما — يا سيد جميل •• متوجهة بحديثها الى السيد
المحامى •• انه نائم الآن ولن يستطيع أن يقابلك •• أيناسبك
ان نأتى فى وقت آخر ••
المحامى — بعد ساعتين ••
ريما — موعده معقول يكون قد استيقظ وأفاق •
ومشيت معه ريما حتى باب البيت الداخلى •• وعادت الى
سلامه قائلة بصوت مبحوح :

— لماذا تركت النقود فى المرة السابقة •
سلامة — ايراد المحل •
ريما — هل أخذت نصيبك ••
سلامة — لا ••
ريما — لك نصفها ••

سلامة — هذا كثير ..

ريما — لا ..

ودخلت غرفتها وعادت تحمل لفة نقود ورقية ووضعتها

فى يده .. وقالت قبل أن تقعد :

— لن أوصيك العناية بالمحل .. وحادثنى فى الهاتف

لتطمئننى كلما أمكن .. وقام سلامة وصافحها وهز رأسه

بالموافقة وعلى بذل المزيد من الجهد وانصرف وهو يدعو للسيد

أمين ولها بالخير .

ولما علم عبد اللطيف بحضور زوج السيدة ريما ..

قرر أن يحدثها فى الهاتف ثم يعلمها أنه يريد لها فى أمر هام ..

وبدأ يلاطف هند وكانت تبسّم له مجاملة وتقول :

— قلبى معك انك تتعب كثيرا وفى حاجة الى الترفيه .

فيقول لها :

— ألا تعرفين امرأة أتزوجها .

وتضحك هند بصوت عالٍ وتقول :

— الديك القدرة على ذلك ..

عبد اللطيف — بالطبع فانا رجل أسود .

هند — كثير من الرجال السود فى مدينتى مرضى بالشذوذ.

ويمضى كل منهما فى سبيله وكان قلب هند يستلّىء بالغيظ

منه لكنها كانت تفعل ذلك من أجل خاطر سلامة وصالح العمل

وأحياناً للعطف عليه .. وكان فى بيت هند رواق طويل به بعض الأعمدة القديمة المشيدة من الحجر • ووضع فيه سرير صغير وعدد من المقاعد القديمة .. وكلما عادت الى بيتها بعد لقاء سلامة امتدت فى فراش هذا الرواق قبل أن تدخل غرفتها وتتناول الطعام وتحتس الشاى فيه .. وتتجاذب مع أسرتها الصغيرة أمها وطفلتها أطراف الحديث .. الا أنها فى الأيام الأخيرة اعتادت أن تنام فيه حتى الصباح .. وكانت فوراً الطفلة تلوذ بأحضانها .. الا أنها كانت تضيق بها .. لقد كانت مشاعر الطفلة أكبر من مشاعر أمها .. وظلت مضطربة تفكر خاصة وأن معاملة سلامة لها أصبحت فاترة .. وفى ليلة من الليال دق جرس الهاتف وكان ذلك بعد منتصف الليل بقليل .. وهرولت اليه هند :

— هالو ..

ورد رجل على الجانب الآخر :

— السيدة هند موجودة •

هند — من أنت ..

الرجل — واحد يعرفك منذ سنين •

وكاد قلبها يتوقف لأنها لا تحب أناساً قدامى يتذكرونها

وصمتت برهة فقال الرجل أ

— أهى أنت ..

هند — ماذا تريد منها ما اسمك ؟ ..

الرجل - كامل الدريعى ••
وتهاكت على المقعد وتدقت أنفاسها فى صدرها كمن
تلهث وقالت متظاهرة بالكياسة :

- أهلا بك •• هلا •• أين أنت ••
كامل - فى البيت •• البيت الذى تعرفينه ••
هند - نسيت البيت ••
كامل - خذى عنوانى ثانية ••
حتى المقرين الجديد •• شارع رقم ١٩ فيلا ١١٣ ••
هند - دون أن تكتب •• تذكرته •• تذكرته ••
كامل - أنتظرك فى الصباح ••
هند - فى الصباح صعب لقد تعييت كثيرا عن العمل ••
كامل - لا يهم ستحدث مع الركيك جندراى •• وسوف
لا يحسب لك اى غياب وسيكون غيابك لمدة عام قادمة مأمورية ••
هند وهى متظاهرة بالسعادة :
- هدا كثير شكرا يا سيدي ••
كامل - لا تتخرى عن العاشرة ••
هند - حاضر سيدي •• حاضر ••

وفى الليل رأت أحلاما مفرعة تتوافد عليها وتدور حولها ••
وكأن شيئا مخيفا يلتف على رقبتها ويضرب رأسها - ولم جاء
الصباح كانت الرؤية مظلمة فقرص الشبس يحتنق والضباب

يكسو الأرض .. ارتدت الثياب الفاخرة والملابس الداخلية
الحمراء وتزودت من العطر الذى يعشقه .. الا أنها وعندهما
أكملت زينتها شعرت. أنها ترتدى ثياب الموت .. وقالت بصوت
عال وهى تنهياً فى المرأة :

— قالوا أن الجنس هو نصف الحب .. والمرأة تعطى
جسدها للرجل الذى تحبه .. وأنا أهتف لهذا العالم .. أن
فى هذه البلاد تعطى النساء جسدها للرجال بالأوامر ..
بالتعليمات .. بالخوف .. بالقهر والقمع .. ألا توجد أذن
لهذا العالم .. أليس لهذا العالم ضمير .. أليس له قوة ترفع
الظلم والبأس عن الضعفاء مثل الأطفال والنساء والشيوخ ..
أيها العالم الحقيق لأنك جبان تخاف من الأقوياء .. أقدم جسدى
لرجل بعد آخر .. ان جسدى فى هذه البلاد ثمناً لحياتى ..
والحرية أن أعيش وفق ما يريد هذا البشر .. انهم يمنحون
الحياة ويقدمون الموت .. ينحى الناس لكى تمر كلمات
الحاكم كالخذاء فوق الرؤوس .. رجال مرضى من حثالة العائلات
صنعوا هذا العالم الوضع الذى حولنا فى هذه البلدة .. انه
عالم حقير وأعمى وأصم .. انه يسر فلا تسمع الا الكلمات السفلى
والنعال .. وخرجت السيدة من بيتها تقصد بيت الركيك وهى
التي نالت أوسمة ونياشين على وطنيتها وعملها المخلص فى الحزب
وشعرت وهى فى الطريق الى رجل الحزب الكبير أنها فى الطريق
أيضا لتيل أكبر وسام فى الدولة اذا رضى عنها هذا الرجل

فقط أو غيره من زملائه رجال الثورة الجهايز .. وبكت بكاءً
هراً حتى أوصلتها العربية ميدان الحى وتعجب سائق الأجرة
لدموعها وكاد يسألها لكنه تركها لشعوره بأنها لن ترد عليه
بسبب انكفائها على أحزانها .. ولما نزلت لتمشى حتى البيت
شعرت بأن أطفالاً صغاراً يجرون وراءها ويقذفونها بالعين
الألنفاظ .. حتى وصلت الى الباب الذى وجدته مفتوحاً حيث
شرعه الركيك منذ قليل ودخلت وهى تقطع المشى ببطء ..
وسمع كامل وقع خطوات فجرى الدم فى عروقه .. ومسحت
وجهها وعينيها وفتح الباب الداخلى لها ودخلت وهى ترسم على
محيائها ابتسامة عريضة .. وهلل وأحتضنها .. قائلاً :

— هلا .. هلا .. هلا بالجمال ..

وأخذها من يدها مصطنعاً الرقة .. أخذها وأقعدها فى أحد
المقاعد الكبيرة ووقعت ملاءتها فتركتها وقال مشجعاً :

— أتركها .. أمازلت ترتدينها ..

ضحكت هند قائلة :

— أنا بنت القبيلة ..

كامل — لا .. أنت ابنة الثورة والحزب واتحاد النساء ..
واقرب منها وزاحمها المقعد وأخذ يحتضنها ثم قبلها
وشددها اليه بقوة ووضع يده على ساقها يعربد فيها فقالت له :

— على مهلك أصابعك حارة ..

كامل - هل تشرين كأساً ..

هند - لا ..

كامل - أريدك سكرافة ..

هند - سأفعل لك ما يحدثه الكأس وأكثر ..

كامل - هذا هو المطلوب ..

هند - سؤال حزبي أجبنى عليه بصراحة ..

فأطرق لها أذنه .. ماذا .. قولي ..

هند - هناء رئيسة تنظيم أكبر أحياء انصاصة فجأة ..

لماذا ؟ وسناء وكيل التنظيم بالمدينة كلها .. لماذا كل

هذا .. وأين أنا من هذه التعيينات ..

كامل - أكثر منك حركة .. أول ما فعلته هناء وسناء

منذ سنين خلع العباءة وهي بنات قبائل مثلك .. أحدث

ملابس الحرية والشياكة .. يذهبن الى أعلى القيادات ليقدمن

أعدالهن وأول ما ينتهي الرجل من مقابلة العمل معهن تسأل

الواحد منهم في نعومة ورقة :

أتريد شيئاً وأنا وأهلي تحت أمرك ..

.. هل تعلمين أن سناء قدمت ابنتها للركيك مسعود

بمجرد أن شعرت بمرضه الشديد ولم تستطع أن تسرى عنه ..

عرضت عليه .. هل أحضر لك ابنتي .. بنت الثامنة عشرة ربيعاً

ولما وجدته يتسهم لعرضها .. مجرد ابتسامة ذهبت وأحضرت

له ابنتها .. ظلت معه أسبوعاً كاملاً تلاطفه وتسامر به بعدها
شفي الركيك .. ومن ثم كان تعيينها وكيل التنظيم
بالعاصمة .. أما ابنتها فستدخل كلية الطب وسوف يكون لها
بلا شك مركز مرموق وكل ذلك مرهون باستمرار العطاء ..

هند - أليس من الواجب أن يكون للمرأة قليل من الحياء ..
كامل - أي حياء للمرأة تقصدين .. هل عرفت لماذا
تأخرت في التقدم نحو هذه الترقيات العالية .. أنت عضوة
عادية غير نشيطة لا تذهبن الى أحد الا اذا طلبك ونحن جميعاً
نحب المرأة التي تعطي بسخاء .. يجب أن تكون امرأة الحزب
والتنظيم مثلاً لكل النساء وعليه بعد ذلك تسلك كل فتيات
ونساء المجتمع وهذا هو المستهدف .. أقت وأمثالك يا هند
تعطلين مسيرة الحزب التقدمية نحو الرخاء والازدهار .. ان
ذلك هو الازدهار الاجتماعى الحقيقى الذى نصبو اليه ..

هند - ولكنى قدمت الكثير فى أول عهدى ..
كامل - أي كثير هذا .. نحن الذين نقدر .. أين
تقاريرك .. هل توقف الناس عن الكلام .. أين اتصالاتك
بالكانيين .. والبيوت من الداخل ..

هند - الكانيون قابعون فى شقائهم لا يعرفون غير العمل
والناس جميعاً ممتنون بالسيد الرئيس ويهتفون بحياته ..
الأوضاع مستقرة .. ماذا أفعل ..

الركيك تعنى الرفيق .

وسادت فترة صمت ذهب خلالها الرجل الى الحمام ..
وشعرت هند بأنها يجب أن تعطي الرجل حتى يرضى عنها
ولما دخل فى الفراش تبعته وهى تخلع ملابسها ولما استقرت
بجواره ضربها على وجهها بيده مرة وتلتها أخرى .. وتركته
يضربها على رأسها وصدرها كما تعود أن يفعل قبل اللقاء
ولما انتهى من ضربه زعق قائلاً :

— قومى يا قحبه خلف الستار وأكملى خلع ملابسك ..
وهزلت خلف القماش الشفاف ورمت ببقية ملابسها على
الأرض دون السوتيان والسروال .. وبدأ يلهث ويحدث صوتاً
كصوت البهائم عندما ترى العلق أو البرسيم .. ونادى بصوت
عال :

— الصدرية .. السروال .. الصدرية .. السروال
وقالت هند لتقطع جنونه :

— هل آت ..

كامل — ارتدى الصدرية .. والسروال .. اخلعى ..
ارتدى ..

.. حتى فعلتها خمس مرات ..

بعدها نادى بصوت مبجوح كأنه يبكى ..

— تعال .. تعال ..

وسترت بيديها عورتها وتقدمت نحوه ولما كان صدرها
يتدلى أمامها دون أن تتحكم فيه أمسك به بشدة مما جعلها

تصرخ .. وضربها على فخذيها وصرخت ثانية محاولاً ارضاء
غورره وصلفه .. وجأر قائلاً وهو يشدها الى الفراش :

— لقد كانت أمى قحبة مثلك ..

رلفت ذراعها حوله قائلة :

— لا أمك لا ..

الرجل — لقد رأيت أمى بعينى يفعل بها أولاد صغار ..

أولاد صاحب البيت الذى كانت تعمل فيه ..

هند — ولماذا فعلت أمك هذا ..

قال والشهبانيا تلعب برأسه :

— لم يكن لنا بيت وأقامت أمى بيتاً من جيوب هؤلاء

الصغار .. كان أبى يعمل بائعاً للعرقسوس فى حى الدواسة

القديم وكنا نقيم فى أحد البيوت العتيقة لأحد التجار الأغنياء

الذى شيده فندقاً عليه بعد هدمه .. وأثناء اقامتنا فى خيمة

بجواره حتى نجد مأوى مات أبى .. وتركنا بلا بيت .. وواصلت

أمى الكفاح بعده .. أخذتني أمى الى بيت هذا الرجل

الغنى فى حى المنصور وكنت فى حينها ابن التاسعة .. وكنت

أرى كل شىء .. صاحب البيت مع أمى .. الخادم الكبير مع

أمى .. وأخيراً الصبية الصغار عندما كبروا مع أمى .. وفى

الخامسة عشرة شيدت لنا أمى بيتاً صغيراً .. ولما جاءت

الثورة المباركة .. كنت بلا هوية .. بلا عائلة ..

بلا •• بلا •• وكان الحزب ملاذى •• ملاذ كل الفقراء
والمساكين مثلى •• ملجأ لكل أولاد الأمهات مثل أمى ••
هند - وهل أخذت بشارك من أصحاب البيت الكبير
الذى عشت فيه ••

كامل - أكثر من عشرين بيتاً كبيراً أخذت بشارى منهم ••
منهم جميعاً •• تقاريرى كانت شاملة وتفصيلية ••••
هند - وماذا فعلت أمك بعد ذلك ••
كامل - كرمها الحزب واعتبرت أمّاً مثالية فى عام ••
لأنها ولدتنى •• أنجبت للثورة المجيدة أحد أبنائها ••

هند - ولما ماتت ماذا فعلوا ••
كامل - وحياتك دفنت فى مقابر الشهداء ••
هند - وهل عملوا لها سجلاً ••
كامل - فى سجل أمهات الأبطال ••
هند - انها احدى أمهات العروبة يا سيدى ••
كامل - من هنا خلق النظام كيانه وأسواره ••
هند - تقصد النظام صنع ••

كامل - النظام خلق •• نظامنا خلاق •• اتنا البعث ••
نبعث الحياة من جديد •• ومرة أخرى خيم الصمت والتقى
بالمرأة وهو يجأر ولو أن واحداً بالصديقة لظن أن فى داخل
البيت حمراً ينهق ••

وذهبت هند الى الحمام ثم جاءتة وفامت معه وفعل بها
من دبر .. وتمنت أن تموت قبل أن تقوم وترتدى ملابسها ..
ارتضى بعدها على بطنه يغط فى فومه ويشخر .. وارتدت المرأة
ملابسها والأحزان ترمى بها من كل جانب .. فهذا الرجل هو
أول من أتى بها من دبر وهو الذى هتك عرضها .. فكيف
لا تجعل نهايته بيدها .. انها تستطيع أن تقضى عليه الآن ..
وذهبت المطبخ تبحث عن سكين أو آلة حادة فلم تجد وكانت
تصرخ من الألم وفكرت أن تقتل نفسها بعد أن تنتهى منه ..
ولو هدأت أعصابها قليلا لوجدت شيئاً تقتله به .. لكنها
كانت خائفة واهنة .. ولم تستطع أن تبحث فى الحديقة
أو فى غرف أخرى أو تفتح أحد أدراج المطبخ ..

وخرجت الى بيت أمها وفتحت لها الصغيرة وهولت فى
الرواق وهى تصرخ ثم وقعت بالأرض وارتطمت فى أحد
المقاعد .. وارتست عليها الطفلة والأم الكبيرة التى هالها
الصراخ وحملتها الأم الى غرفتها .. وعند المغرب بعد تناولها
الطعام اعترفت لأمها بأحداثها .. وكانت الأم تتجه نحو الصلاة
لتصرخ وتولول قائلة :

— يا للعار يا للعار .. العار لن يترك بيتنا ما حيت يا هند
وترد عليها هند :

— سوف أريحك يا أماه .. أين أبى ليقتلنى ..

الأم وهى تروح وتعود وقد فتحت قميص صدرها تضرب عليه مرة وعلى رأسها أخرى :

— أبوك يتاجر .. يجمع المال .. التجارة الحرام ..
ألا يسمعى أى أب على كل أب وأم أن يتاجرا فى أبنائهما ..
ان التجارة الحلال هو تربية الأولاد والبنات وتأديبهم وتعليمهم
الشجاعة والجرأة ومعالجة الأمور بالحزم .. وأنه فى أمور يجب
على المرأة تفضيل الموت عن الحياة فى خزي وعار .. ان رجالا
كثيرين وأمهات يتاجرون فى الحرام .. ان مراقبة البنات والعطف
عليهن ومدارتهن أفضل تجارة فى هذا العالم .. لقد خسرنا
حياتنا بتركنا هند .. خسرت حياتى من أولها لآخرها ..

وتسمعها هند وتبكى وتضرب بيديها الفراش قائلة أ
— أين أبى ليقتلنى ..

وفكرت فى أن تتناول مدية وتخرخ من البيت لتعطيها لأى
رجل أو امرأة لتغرسها فى صدرها .. وقامت تجرى وسط
البيت تبحث عن شىء صلب ولحقتها أمها تضربها وتبصق فى
وجهها .. وارتمت هند وسط البيت تضرب الأرض بقدميها
ويديها بعنف وارتمت الطفلة فوقها تشنها عن أفعالها .. وقالت
لها الجدة :

— أتركها تفعل ..
الطفلة — أى عار لحق بأمى يا جدتى .. أى عار ..

الجدة - أنا وزوجى سبب العار يا طفلى ..
وفغر فاه الطفلة :

- ماذا .. ماذا ..

وأحتضنتها الجدة وذهبت بها الى صنوبر المياه لتغسل
وجهها ونظرت الى سقف البيت .. أنت المستقبل الوحيد ..
اذا كان هناك مستقبل ..

.. الطفلة وهى تمسك برأس جدتها :

- تقصدين المدرسة يا جدتى ..

الجدة - لن تذهبى الى المدرسة أبداً ..

الطفلة - ومن يعاينى القراءة والكتابة ..

الجدة - سنأتى لك بمدرسة فى البيت .. هناك
سيأخذ .. هناك يأخذون الفتيات الصغيرات الى جهنم ..
الطفلة - صحيح يا جدتى .. فى كل المدارس ..
الجدة - فى مدارس هذه المدينة فقط .. الخروج من
البيت عار يا ابنتى .. وأخذتها الى فراشها تربت عليها وتقبلها
فى يديها وجبينها ..

وشردت الطفلة فى كلام جدتها .. هناك يأخذون الفتيات
الصغيرات الى جهنم .. الى جهنم .. كيف .. وراحت فى
النعاس ..

وفى بيت السيدة ريبا كان السيد أمين قد حصل من

المحامي على وصيته مسجلة وموثقة باسم زوجته واحتفظت بها سيدة البيت فى درج بالمكتبة .. وبناءً على طلب صاحب الدار انتقل الى الطابق الأرضى فى غرفة صغيرة للنوم تطل على الحديقة من الخلف .. وكانت السيدة ريسا تنام بجواره طول الليل والنهار .. تعالجه .. تسبح على جبينه .. تحتضنه .. تتحدث معه فى الحياة والدين والله والأرض والناس ودولة عباس حديث طيب وهادىء لا ينتهى .. الا أن السيد أمين كان دائم الحديث عن الموت والذل والهوان فى هذه المدينة .. وفى صباح أحد الأيام استيقظ فى الفجر وأمسك بكتف زوجته وقال :

— ريسا .. حبيبتى ..

وانقلبت نحوه أ

— نعم يا أمين .. نعم .. هل تريد شيئاً ؟

أمين — قومى الى الصلاة .. قومى الى الصلاة ..

ريسا — هل صليت ..

أمين — احضرى الماء الدافىء ..

وأحضرت له الماء فتطهر وتوضأ وذهبت تتوضأ ثم عادت لتجده يصلى سنة الرسول وهو يضطجع على فراشه .. وأقامت الزوجة الصلاة وقامت بدور الامام وهو يصلى فى فراشه .. قرأت بصوت عال، وأدت صلاتها تؤم رجلها المريض على خير ما يرام .. وناولته كتاب الله وأخذ يقرأ .. قرأ اليوم

أكثر من أى يوم آخر .. ولما انتهى وضع الكتاب على صدره
وأغمض عينيه وهمست شفاته بالدعاء والرحمة ..
وأخذته فى أحضانها تلفه فى الغطاء برقة وأدب وأحتضنها
بذراعه التى لفها حول جسدها وقالت له :

— أشعر بالأمان فى أحضانك ..

أمين — بل أنا ..

ريما — لا انى أشعر أكثر ..

أمين — وأنا ..

وقام قليلا ووضع رأسه على صدرها وأخذت تنفخ فى
شعره .. كان مثل كودية قش أو عودين من القصب يمتدان
بجوارها ولما قالت له لا تغرب وجهك عنى ..
قال وهو يربت على بطنها :

— أنفاس ساخنة .. أشفق عليك من ضمور وجهى ..

ريما — لكنى أجد فيه أجمل وجه فى الدنيا ..

أمين — أنت زوجة مؤدبة وتجاهليني وتاماني برقة وخلق ..

ريما — وهل هذا الا بعض أدبك وأحلافك .. لكن

صدقنى أنا فخورة بك فأنت نعم الرجل والزوج والانسان ..

أمين — دعيني أقبل يدك .. وقبل يدها التى كان يمسكها

فى يده .. قبل أصابعها واحد واحداً .. ولما انتهى قامت

الزوجة وأمسكت بقدميه وأخذت تقبلهما برقة وبعنف وهى

تجهش بالبكاء حيث ملأت الدموع عينيها •• تقبل تلك العظام البارزة فى معصم قدميه •• ويكى أمين من صدق واخلاص وأمانة زوجته •• بكى كما لم يبك من قبل •• وراح الاثنان فى نوبة من البكاء والألم •• ولما انقضت نصف ساعة •• أغمضت جفنيها وقد تمثل عرسهما الجميل وحفلته الرائعة والجمع الهائل من الناس الذين حضروا هذه الليلة •• أين هؤلاء منا اليوم، ولماذا حضروا وكيف تفرقوا •• الا أن السنين قد مضت وأصبحت الذكرى أى ذكرى قد عبث بها النسيان وتداخلت الأحداث أمام عينيها وحفلت وارتفع صوتها •• سبحان من جعل الأيام تنقضى ولم يبق فى حياتى الا الدموع والحزن والألم •• ولما شعرت بأن حركة أمين قد سكنت قامت متكئة على حافة السرير وكان النهار شديد البياض زاهياً ورذاذ من الندى يتساقط على ورق الحديقة •• فراحت الى الشباك تستنشق الهواء البارد وأذناها تسمعان كلمات أمين ومر بعض الوقت فغلبها الكرى •• وتمشت فى البيت بعد أن اطمأنت على نومه ونزلت الحديقة رغم شعورها بالبرد وامتدت يدها الى بعض الورود تقطفها وتشمها ثم ترمى بها •

وصعدت الى الطابق الثانى لترى أن جو الغرف موحش ولأول مرة تشعر بهذا الشعور وتهياً لها أنها خالية من الأثاث وكانت ستائر القماش الثقيلة تنطير من شدة الهواء وتساءلت أليس لها أن تقوم بترتيب البيت ليكون على نحو أفضل ••

ولم تجد راحة فيما فعله أو تفكر فيه .. وهرولت الى زوجها
بعد أن قفلت كل نوافذ البيت عدا شباك الغرفة الصغيرة ..
فوجدت المتعة الكبيرة بجواره .. وجدته مستيقظاً يتأمل نور
الشمس الذى بزغ فجأة .. كانت عيناه تتهان عبر الأفق البعيدة
نحو السماء، وشعرت بحاجتها للحديث معه الا أنها وجدت
أن تتركه يتأمل لعله يجد فى الأفق شيئاً يريح نفسه ..
غير أنه قاطعها قائلاً :

— ألا ترين أنى بخير اليوم .. مثل أى طفل يتصرف
مع أمه ..

ريما — ان صدرى الذى نمت عليه لن يقل حنانا عن
صدر أمك ..

أمين — منذ عودتى وأنا أريد أن أفعل .. وخفت
أن تضجى فنى .. غير أنى لم أستطع مقاومة هذا الوداع ..
هذا الحزين اليك ..

انحنت عليه وقالت :

— أى وداع يا أمين .. أنت بخير ..

أمين — لا بد من الوداع .. كنت أتمنى أن يكون لى ولد
أو بنت يخلفنى ويودعنى معك .. أترك هذه الدنيا وليس لى فيها
شئ .. الا أنت صبرت وتحملت من أجلى ولم أعطك أى شئ ..
ريما — استغفر الله ومن له فيها شئ .. ان الأبناء
لا يفعلون لأهليهم شيئاً فى الحياة أو بعد الموت .

أمين - انها الحياة .. متعلقات الحياة .. شعورى
وحاجتى كائنسان ..

ريما - هذا قدرنا .. لكن نصيينا من الايمان والصبر
أكبر ..

أمين - صحيح الايمان هو زادى الحقيقى .. أما الصبر
فماذا أفعل غيره .. ولولا الايمان ما كان الصبر ..

ريما - ما هو الفرق بيننا وبين الناس قليلى الايمان ..
ان زاد الدنيا قليل حتى ولو كان تاجاً من ذهب .. صدقنى ..
الايمان هو السعادة الحقيقية .. هو العمار الحقيقى بين
الانسان وربه ..

أمين - انى أرى النور من منامى يلتف حولى وينير لى
طريقاً جديداً ..

ريما - هذا هو عملك .. ان جهادك فى سبيل الحق
والعدالة سيكون له عند الله جزاء ..

أمين - لقد تعذبت فى المعتقل عذاباً لم ينله أحد ..
أى انسانية مشينة على هذه الأرض التى تعلق المشاقق
للناس الذين يطالبون بالحرية والعدالة .. أنا حزين على كل
جاكم ينكل بالناس .. والله انها انسانية حزينة ..

ريما - نحن فى حاجة الى من يحزن علينا .. ان الانسانية
وانشغالك بها جلبت لك الاعتقال والتعذيب ومن ثم المرض ..

أمين - من كان له شرف هذا النضال قد شيد جزءاً من
السور الرفيع المنيع ضد البغى والضلال .. انه رمز المبادئ
الباقية والتي لها قوة السحر .. وتنهذ بصعوبة وهو يكظم
غيظه وأردف يقول :

- كثيرون ماتوا فى المعتقل والذين خرجوا شبه أحياء
مثلى ليرانا الناس رمزاً للخوف والقمع .. فأنا تجسيد لمن وقف
يقول كلمة أو يطالب بحق .. هذا هو .. كسا يقولون شبح
انسان يتحرك .. ميت حى .. فى دكان قصاب المدينة ..
ريما - حياتك كلها معاناة حتى الأهل والأقارب لا يأتون
لزيارتنا ..

أمين - أرى طاقة من النور تنبعث على مساحة واسعة
فى الأرض الخضراء وأرانى أمشى فيها ومعى آخرون أتذكر
أنى رأيتهم .. وخلفى فى الأمد البعيد مساحة شاسعة من
الغن والوحل ..

ريما - انها الرحمة .. انها الرحمة مع القليل من الناس
وتترك هذا المجتمع الفاقد لكل المعان النبيلة .. اذا كان النظام
الحاكم يقود الناس الى المحرقة .. الى الظلام والفساد والكفر
.. فلماذا لا يتقرب الناس من بعضهم البعض .. هل أصبح
الناس فى هذه المدينة يخافون من أهليهم وأصدقائهم
وعشيرتهم ..

أميين - ان هذا النظام يقتل المودة والحب والسلام بين
الناس وانه يزعج عندما يرى الحب بين الناس .. ان في ودهم
قوة وفي اقصاهم ضعف .. انه يريد أن يواجههم وهم فرادى
متفرقين .. واذا اجتمعوا كان لهم اتجاه مخالف .. اتجاه أخلاقي
أدبي .. فكري .. لكن بتفرقهم وخوفهم من بعض هذه هي
المجتمعات السليخة للتحزب العظيم ..

ريسا - قالت لي احدى السيدات منذ سنوات عندما كنت
في زيارة أمي بالتمتال .. ان هذا النظام يقدم للناس موتا
جافا بلون كفن .. انه الهلاك في سلمه والهلاك في حربه ..
كل وجه له هلاك .. انه الهلاك في اوله وآخره .

أميين - ان بصرى بدأ يهلك .. وقلبي يدق في وهن شديد
.. والدماء شحيحة في عروقي .. حتى الأفكار ذهبت عن
رأسي .. وأمسك برأسه قائلا : أين رأسي .. اللعنة على
الماضي والحاضر والمستقبل .. ان كل انسان يولد في هذه
البلد محكوم عليه بالاعدام .. انها السجن الكبير بلا أسوار ..
وكافت مجلدات وكتب ومصاحف تملأ الزفوف الخشبية في ذلك
البيت قد احترقت .. آلاف الكتب القيمة .. ورتها عن أبيه ..
أما بالنسبة للنظام خطو .. وانها اتجاه ضد الوطنية والثورية
والبعث .. لقد احترقت جميعها في حديقة هذا البيت ..
وتركتة ريشا التي الضامنة ندا لتبلغها بتجهيز طعام الفطور وأخذت
على عاتقها هذا اليوم تجهيز الطعام وسعدت فدا بذلك ..

وحملت السيدة ريماء المائدة الى السيد أمين .. ومرة اليوم
بعد ذلك بين النوم واليقظة .. ولما جاء المساء شربا عصير
الليمون الذى أعدته ندا وجلست قبالتها تشبع شوقه فى الحديث
عن الماضى وقال الرجل مبتسما :

— انى أرى العالم كله فى بسمة نورك .
وخفق قلبها وذهبت نحوه تطبع قلبه دافئة على جبينه ثم
عادت وجلست مرة أخرى قبالتها .. وقال لها :

— دعينى أذكر لك بعض الماضى البغيض ..
ريما — أنا جد ممتنة فى سماعك حتى الصباح .. والله
ان حديثك الى أعتبره قيثارة حياتى ومخزونها الذى لا ينفذ .
أمين — حين يموت حمار يأتى طيبب الحى ليقدم تقريره
عن موته .. روح الحيوان وموته غالية جدا .. فما بالك ..
والأنظمة المنحطة التى تزهر روح البشر بأيديها .. ان حكومات
تبعث بنعوش للحمار لتدفنه .. فرق كبير بين القيم واللاقيم ..
الحضارة والحظائر .

ريما مندهشة : وهل هناك نعوش للحمير ..
أمين — نعم يلفونه فى قماش ويضعونه على نقالة خشبية
نظيفة ويأتون بعربة لنقله الى قبره .. يازوجتى فى معتقل السادة
سلخت من بطانية قدرة مهلهلة أفرشها على البلاط وأتغطى بها
بعض الخيوط وعقدتها مسبحة .. فلم أجد من سبيل الا تسبيح
الله واستغفاره لانقاذى من الذل والهوان الذى وقعت فيه ..

وكنا فى كل أسبوع نخرج فى طايور للرياضة ونجربى فى أحد
الفتحات المصنوعة فى السجن الكبير نجربى فيها فى شكل دائرة
على أرض مليئة بالحصى والزلط حتى تدمى أقدامنا وزبانية
السجن خلفنا بالكراييج والعصى يضربون كل من تفتادى الحصى
أو تقاعص عن الركض ولم يكن أحد يسمع غير الصياح وجأر
الألم وكلما صاح السجناء نزلوا عليهم بسياطهم المبرحة فوق ظهورهم
ورؤوسهم .. وكانت المسبحة تتعلق بين أصابعى ونسيت نفسى
وأندته بـ موت عال .. سبحان الله .. يارب .. يارب .. يامغيث
أغثنا .. ولم يكن يتسمنى أحد من حكامدارية السجن .. كان
صوت الطرخ والصياح والألم أقوى من صوتى .. لكن الله
كان يرى ويسمع الجميع .. الا أن أحد الزبانية رأى المسبحة
فى بدى .. فقدم نحوى وأشبعنى لكما وبصق فى وجهى مرات
وأوقفوا مسيرة الخرفان ليشاهدوا كيف يضرب من أمسك
مسبحة فى هذا المكان وذكر الله .. قام ثلاثة بضربى بعضى
غليظة ووضع أحدهم خابورا فى مؤخرتى وهنا صاح المعتقلون
جميعا يا الله .. يا الله .. وأمر قائد الطابور بظهور آخر جزاء
لهاتفهم بهذه الكلمة .. وكان طايور الموت وارتسيت وسط
الجزرة مغشيا على وكانوا يأمرن الخرفان المذبوحة بالمرور
فوقى ووقع الكثيرون بجانبى يتأوهون واعتقد بعضهم بأنى
فارت الحياة .. وفادى أحدهم .. يا أولاد الق .. من يسك
بمسبحة بعد اليوم سوف يرى أمه هنا نفعل بها جميعا .. وطوح
بعضاه فى الهواء ثم أمسكها .. وجأر يقول فى افعال :

ليس هناك الله .. أى اله تدعون .. لن تروا الشمس حتى تلقون بالهكم هذا على قارعة الطريق المؤدى الى دورة المياه .. وقال آخر :

الله هو عباس الهكم والها جميعا .. ياخونة .. يطعمنا وينسقنا ويصبحنا ويمسنا .. وتلاقت نظرات الموتى .. كانوا جميعا يقولون فى صمت .. - حسبنا الله ونعم الوكيل ..

وأخذت ربما تهز رأسها وتشير اليه بيدها أن يهدأ .. وكانت تشعر بضربات قلبه تدق بسرعة الا أنها اقتربت منه وانعتت عليه والزفرات تملأ خديها تهدأ من روعه وانفعاله ..
إلا أنه أمسك بكتفها وقال :

أتقدم بشكواى وكل معتقلين العالم الصغير الى الله .. أن ينتقم وآلا يمهلم أكثر من ذلك .. ان كل الأطفال والنساء والشيوخ والنبلاء دخلوا معتقل عباس .. المخرج ياربى ..
المخرج يا الهى ..

وقالت ربما وهى تعذل العطاء حوله :

أعرف أنهم يسحقون البشر ويخرسون الأفواه بكلمات الخق .. يهتكون الأعراض .. يسعون فى الأرض فسادا .. جعلوا من أنفسهم آلهة وهم أحقر أنواع البشر .. الذين ظنوا وأحرقوا قرى بكاملها .. أطفالها ونساءها ورجالها بالغازات والسموم .. ان الانسانية كلها تعرف ذلك ولكن أين ضمير

هذه الإنسانية •• قفلوا بيوت العالم الصالح والأمين ••
 وفتحوا بيوت اللصوص والسفلة •• جعلوا من الجرابيع ساحة
 وأصبح السادة يخافون من الهواء ومن مياه الأنهار ومن أوراق
 الشجر •• يخافون من جدران بيوتهم وشرابهم ••
 وأمست الدنيا قاسية على بيت السيد أمين •• وقبل أن
 يروح في النوم سقته الماء وراقبته حتى استغرق في النوم ••
 كاني يتنفس بصعوبة ويعنقه النحل يكاد يقع من الوهن •• وعيناه
 الذابلتان غائرتان في وجهه ••

وأمضى في النوم ساعة بعدها نادى ريماء التي كانت ترقب
 بجواره •• وأمسكت صدره بيدها قائلة :
 يا أمين ألم تكن نائما •• هل أت لك بالطعام ••
 أمين - لا •• ليس الآن •• أقول لك كلمات أخيرة ••
 أنها وصيتي حين أموت •• أن مقابر جدي من أبي في الشمال ••
 انها في المدينة التي تعيش فيها أمك •• هل تتذكرينها لقد ذهبنا
 معا لزيارته منذ سنين ••

ريماء وهي تحاول اسكياته :
 - أعرفها •• أعرفها يا أمين •• أرجوك كفى ••
 أمين - إن مقابر أبي هنا •• لكن راجتى في الشمال ••
 إن أقدامهم هنا ثقيلة وأخاف أن تداس مقبرتى بعيد الموت
 بأقدامهم •• إن دور الموتى قادم عند هؤلاء •• عندهما ينتهون

من الأحياء .. سيذهبون الى الموتى لينكلوا بهم .. ان الشمال
يخيفهم لا يستطيعون أن يدوسوا الأحياء وكذلك الموتى ..
انهم فقط يضربون الشمال بالطائرات .. اذهبى الى الشمال
بعد موتى .. قومي بيع كل ما نملكه . واذهبى الى الشمال
عند أمك لترعاك .. وحيث بعض الأمان ..

وذهب الرجل فى النوم .. بعدها قامت ربما لتحضر الطعام
.. ولما عادت تحمله اليه وجدته يشخر ويشهق فألقت بالطعام
على الأرض وأسرعت نحوه تعدل من رأسه ورقبته الا أنه زعق
مرتين وفى الثالثة كان يرمى شيئاً من فمه .. بعدها كان
السيد أمين بلا حراك ولا روح فيه .. لقد صعدت الروح الى
بارئها .. وعلى السيدة ربما أن تفعل بالجسد كما أوصاها ..
وصرخت السيدة من أعماقها وارتمت عليه . وهرولت السيدة
قلداً وارتمت على فراشه تصرخ وتواول .. وفى منتصف الليل
كانت عربة الموتى تتجه الى الشمال وصاحبة البيت وندا تصحبان
الرجل العزيز فى صندوق العربة الكبير الى مشواه ..

وفى الجانب الآخر من الحياة .. حيث قضى الركيك كامل
عدة أيام أخرى فى المدينة .. حيث الاحتفالات التى جاء من
أجلها بدعوة من رئاسة الحزب .. ولم يتورع فى اليوم قبل
الأخير فى المدينة أن يطلب سيده من سيدات المجتمع المهان :

— هالو

— هالو

كامل - السيد رياض موجود •
السيدة - فى مأمورية بالشمال •• من أنت ••
كامل - كامل الدرعى •• أتعرفيننى •
السيدة - أسمع عنك •• هلا • بيك ••
كامل - لماذا ذهب الى الشمال •
السيدة - تمرد الأكراد بأحد الجبال ••
كامل - سيدة نادرة حقاً لم تقولى لماذا ذهب الا بعد أن
تأكدت من أنى الركيك ••

السيدة - طبعاً ياسيدى •• نحن أمناء ••
كامل - هل حصل السيد رياض على قطعة أرض بحى
الميدان ••

السيدة - لا •• أين هذه الأرض ••
كامل - فى مدخل المدينة من الشرق •
السيدة - كيف نحصل على قطعة منها ••
كامل - خطاب منى للمسئول يتم الحجز فوراً ••
السيدة - هل هناك شروط للتملك ••
كامل - الشروط أن تأخذى منى خطاباً للمسئول ••
السيدة - منك ••
كامل - الليلة ••
السيدة - أين ••

كامل - تعال الى البيت ..

السيدة - كيف ؟

كامل - هل أنت صغيرة علي المجيء .. أنت زوجة رياض

وأخت عزيزة علينا ..

السيدة - أليس من الأفضل وجود رياض ..

كامل - يا سيده فائزة أنت كبيرة - مثقفة واجبة تقبلية ..

أجمل سيدات العاصمة ترفض أن تأتي لتحصل على قطعة أرض

مجانية .. ماذا أنت أنا لا أصدق ..

السيدة - أليس هناك مكان آخر غير البيت ..

كامل - في الصباح الباكر أسافر الى الجنوب ..

فائزة - صعب على لم أذهب أبدا الى رجل وجده ..

كامل - أنت حرة .. على العموم هذا عنوان البيت ..

وأملى عليها العنوان ..

ثم قال :

- اذا حضرت ستجدين الخطاب جاهزا ..

فائزة - شكرا ..

كامل - مع السلامة ..

واعتقد كامل أن فائزة لن تحضر .. وبقى هاتفه على هند

وأبلغها أن تكون عنده بعد الخامسة مساء ..

وشعرت هند بالكآبة وفي الوقت نفسه طرأ تغير مفاجيء

علي أفكارها .. حلت الإرادة والقسوة والانتقام محل القيود
والياس والظلم .. وذهبت الي دولاب أمها بعد أن أكملت ارتداء
ثيابها والتقطت المسدس وحشته بالرصاص وألقته في حقيبة يديها
.. الا أنه في لحظات عاودتها مشاعر مؤلمة للنفس .. وتبياً لها
أن دخانا كثيفا قد خيم علي غرفتها .. ثم حلت ارادتها ثانية
وقوتها قائلة : اما أن أعيش حرة أو أميت .. أنا امرأة لا تستحق
الحياة بعد هذا البذل .. أليس هذا هو الرجل الذي دمرني
وقدمني وجية شهيداً لأصحابه .. أعتبر نفسي بلا أب أو أخ أو عائلة
.. فلا أحد يدبري بأمرى غير الله .. ان الله سيكون معي إذ
أردت .. أيها المنحدون من أين أتيتم .. وخرجت من البيت
وهي مفعمة بخليط من القوة والحزن ثم عاودتها أفكارها :

كانت بلادي تحت الاستعمار الأجنبي .. فلم ينكح بأمرأة
.. لم يطلقوا شعاراً أو يقيموا حفلة علي شرف ولم نسمع كلمة
ركيك ولم يتأهل لمنصب واحد من جثالة المجتمع .. كان
الاستعمار ينهل الثروات فقط والحاكم يمر مع التاريخ مروراً
سهلاً دون أن يذوق أرواح البشر .. غير عباس الكبير يوجد
آلاف العبايس يحصلون علي النساء ويسجنون الرجال ويضربون
الحرية والحق كما تضرب الكلاب الضالة في عرض الطريق ..

كانت قدماها تدقان أرض الشارع بقوة .. وهناك وجدت
باب البيور مفتوحاً وكذلك الباب الداخلي وفي تلك اللحظة

سَمِعْتُ أصواتاً بالداخل فتوقفت ثم تقدمت قليلاً وخلعت حذاءها
وثقلت في الصالة الى باب الغرفة المقفل وأطرقت السمع فإذا
بصوت امرأة واضحاً وصوته أيضاً .. واستطاعت هند أن تحرك
مقبض الباب حتى تحدث فتحة صغيرة وساعدها على ذلك مرور
احدى المركبات الكبيرة محدثة صوتاً عالياً .. وكان الحوار عالياً :
كامل - لن رياض أخى وأنت غالية عندي منذ أن رأيتك
معه في حفلة الذكرى الأولى لتتصيب .. أنا لم أرسل اليك
الا بعد أن فكرت فيك كثيراً وسوف أقوم باهدائك فى كل
مناسبة وتكون هناك عدد من الامتيازات سأضعها تحت تصرفك
فى هذه المدينة ..

وكافت السيدة تقعد على أحد الكراسى الموجودة بالغرفة
.. مشدوهة تلثعم فى الرد .. وردد عليها كثيراً كلمة ..
لا تخافى .. كيف تخافين .. أت سيدة مجتمع وسوف أضع
اسمك فى كشف نساء المدينة المرموقات وسوف .. وسوف ..
.. كانت هند لا تسمع بعض الكلمات ..

وذهب ليفتح أحد أدراج المكتب ورفع يده بظرف أبيض
لامع وقال :

- هذا خطابك .. سوف أكتب اسمك فقط .. قومى
اخلعى ملابسك .. اذهبى الى أى غرفة وتهمأى وتعال الى
الحياة والحب .. من أين أنت .. ألسنت امرأة وقفل المكتب

ودنا منها ولم تنبس المرأة بنبت شفه وأمسك وجهها بكلتا يديه
ولم تقاومه المرأة ولكنها رجعت الى الخلف وأمسكت بذراعيه
وكأنها ترجوه أن يعفو عنها .. وعلا صوتها :
— سوف أحضر اليك مرة أخرى ..

كامل — تعال .. بالطبع ستأتى .. ولكن هذا المقدم لا بد
منه ضرورى .. انه طلبى عندك .. ان كل امرأة متزوجة لرجل
منا .. هى ملك الجميع وقت الضرورة تلبى النداء وهذه هى
الوطنية الحققة للحزب .. وتمشى نحو المصراع وأحكم قفله وعاد
يمسكها من كتفها مداعبا .. وحاولت رفع يده من عليها لكن
أصابعه تشبست بها .. وغرق البيت فى الصمت وتركها وراح
يتمخبط فى الغرفة وهبت ريح بالخارج تعصف .. ولم تنطق
فائزة بكلمة .. كانت مشدوهة لما يحدث .. وعلا صوت
العاصفة مما أضفى على فائزة شعور بالخوف والوحشة ..
وقامت من على مقعدها بصعوبة واتجهت نحو الباب قائلة
كأنها ترجوه :

— هل تسمح لى بالعودة .. أنا متعبة ..
وضحك عاليا ويدها تتشابكان خلف ظهره .. وزعق فيها :
— لماذا جئت اذا ؟

فائزة — جئت لأثبت لك أنى امرأة تقدمية .. واذا كانت
الأرض حق لنا .. جئت للحصول عليها ..

كامل وهو يتسم :

— أنت غير جاهزة معى ..

فايزة — ليس لى مجال وتلعثمت .. ليس — أنا امرأة من

عائلة طيبة ..

كامل — هذا مربوط الفريس .. عائلة طيبة .. كل العائلات

طييات .. لا توجد عائلة غير طيبة .. كل الناس تأكل وتشرب

وتيسلى وتبيع وتشتري .. أليس فى الأرض حياة .. وأنت جئت

من أجل هذه الحياة .. وأنا أجد أن فى اللقاء معك حياة ..

فكيف تأخذين منى حياة ولا تعطينى الحياة التى أرغبها ..

فايزة — ان زوجى رجل تعرفه وهو مخلص فى عمله وهو

حياتى .. بحلوه ومره ..

كامل — عمله يتقاضى عنه المنح والحوافز .. وإلآنك جميلة

مبن .. جميلة النساء خصصنا لك هذه الأرض وسيتم تسديدها

من جانبك اذا فهمتين ..

وتقدمت خطوات نحو الباب وتركها .. لكنه اقترب منها

وضربها على وجهها بأصابعه فاحمر وجهها وزمجر بالغضب لكن

الدموع ملأت عينيها .. وطفقت تقول كلمات مبشرة ..

— كنت .. كنت أفهم .. أن .. أن الأرض من من أجل

زوجى .. ولم أكن أعرف أنك تقصد بتقدم المرأة هذا القصد

.. واعتقدت أنكم تقضون مصالح الناس لأفكم أتيتم من أجلها

•• هل أعراض الناس مقابل حقوقهم •• ان كانت ههنا
توجد حقوق ••

وأشار بيده الى الفراش قائلاً أ

— على الأرض اخلعى ملابسك •• لقد تحدثت معك حتى
النهاية •• مع من تتكلمين ياق •• ••
فايزة — أنا ذاهبة الى بيتى •• أعود الى بيتى واعطى
الأرض لمن تستحقها ••
كامل — اذا لم تعودى الى رشذك سوف أجعل كرامتك
كأى شىء قدر ألقى فى الطريق •

وتحاول فتح الباب وأخذت ضجة مع المقبض لأن أصابعها
ترتعش •• ورجعت هند الى الخلف •• وهروا نحوها وشدتها
بقوة الى الخلف فوقعت •• ولما بات ساق المرأة البيضاء
الجميلة جن جنونة وحاولت أن تقوم بسرعة لكنه وقع فوقها
محاولا اقناعها بالرضوخ وهى تزيحه بيديها وأطبق يديه على
جيدها فكادت تختنق وتغرت المرأة حتى بطنها ودفغته بسناعاتها
لكنه ضربها ضربا شديدا فى كل مكان بجسدها وشد سروالها
ورماه الى أعلا وعادت المرأة عارية •• ان خطوة واحدة من
ضرب الرجل لها معناها الوقوع فى الخطيئة فلم تعد تستطيع
مقاومته وبدأت تزحف على الأرض بظهرها حتى التفتت يدها
بحذاء فضربته به على وجهه وصرخ فى وجهها وبضق وخلع

بنطاله و .. وانعدل فوقها وداهما بقبضة فوق رأسها وتشنج وأرتعش وأصبحت كمن أغمى عليها وبدأ يقترب منها يحمل ساقيها بين يديه .. وهرولت هند الى الحديقة وحملت حجرا بكلتا يديها واقتربت من الواقعة وبكل قوتها ألقت الحجر فوق رأسه فترل من على المرأة يسقط على جنبه وحجبت وجهها بفرش صغير وخرجت ثم عادت بالمسدس فى يدها واقتربت منه وأطلقت طلقتين فى وجهه ورأسه وواحدة فى صدره وغرق فى دمائه وكافت صرخاته أضعف من أن يسمعها أحد بالحديقة وارتمى عاريا فى دماء أعماله المشينة .. ولم يكن من اليسير أن تمسك كلا المرأتين بأعضابهما .. حيث ارتمت كل منهما على الأرض تبكى وترتعش .. غير أن فائزة ارتدت سروالها ولادت تحتضن هند وتقول :

— من أنت من أين .. أتيت .. ياربى .. هل أتيت من
أجلى .. من أرسلك ..

وانفجرت هند باكية ليس على الرجل وربما فرحة ..
أولاً لأنه حدث جرى لامرأة تقبل عليه لأول مرة .. هل هى مأساة
وضعت فيها .. أم هى طوق نجاة لها وللمرأة التى كاد يعتدى
عليها .. ان هند فى كل الأحوال فرحة .. أية فرحة .. لقد
بكت لأنها لم تجد غير البكاء يفجر ما بداخلها من أمور
كلها مختلطة ومؤلمة ومتشابكة .. لقد كانت فائزة أكثر

تماسكاً ولقتها بذراعها تحتضنها الى حمام البيت .. ومشت هند
وكأنها تعرج وتولت هند فجأة أمر نفسها حيث اعتدلت وأخذت
تمسح ملابسها من آثار دموعها ومسكت كتف فائزة قائلة :
- مبروك ..

.. واحتضنتها فائزة ممتنة .. وهناك في الحمام تولت كل
واحدة أمر نفسها .. بعدها دخلت المرأتان الغرفة لتتأكدا من
موته وكانت الغرفة حوله غارقة في دمه وشدت هند شرف
النزير لتغطيه به .. وتأكد للمرأةتين أنه انتهى وأنها قامت بعمل
كبير وقالت هند :

- يجب أن لا نخرج الى الحديقة معا .. علينا أن نتأكد
أنه لا يوجد أحد حول البيت وتأكدت فائزة من نافذة المطبخ
التي تطل على الحديقة من ناحية السور .. وطلعت هند متوترة
إلخبطى وفتحت الباب ببطء وبرز رأسها الى الشارع فوجدته
ينصرف في حركته العادية وأشارت الى فائزة بأن تتقدم نحوها
وعند الباب اتفقتا أن تخرج واحدة بعد الأخرى ولما خلا
الشارع من أى حركة خرجت هند وبعدها قفزت فائزة ولما
اجتازا انحاء الشارع الى آخره كل تتبع الأخرى .. وتشابكت
يدي المرأتان في جراحة .. وقالت فائزة وهما يجوزان أحد
الميادين الموصلة الى شارع رئيسى :
- من أنت وكيف أتيت ..

هند - أنا واحدة من شبكة العنكبوت .. شبكة الموت
.. ولكنى لست منهم والدليل أننى قتلت هذا الأذى ..

فايزة - هل يوجد غيره بالمدينة ؟

هند - مئات أحظ منه فى كل مدينة ..

وفكرت هند فى محاولة التخلص منها بسرعة غير أنها
همست فى أذهها :

- ومن أت ..

فايزة - تصورى أنا زوجة أحد من رجالهم .. الرجال
الصغار ..

هند - لا يتركون أحدا ..

فايزة = هذه المرة الأولى .. جئت للحصول على قطعة
أرض وقاومته وضربته بالحذاء ورأيت بقية المحاولة ..

هند = أكان زوجك يوافق على مجيئك عنده ..

فايزة = يعتبر الأرض حتى ولو بهذه الوتيلة احدى
خضوقة .. هو خزبي مخلض ويكون فخورا لأننى قابلت سيده

فهو بالنسبة له شخصية عظيمة .. وليس مهما أن يفعل بزوجته
.. ان هذه أمور تافهة وعادية .. وأن ما تفعله زوجته بالنسبة

لهذه الشخصية الكبيرة أقل شئ يجب أن تفعله .. يعتبرها
بئىء مثل الوئسة أو التسلية .. ترفيه اجتماعى فى منطه من

القاعدة الى القمة ..

هند - انها المأساة المؤلة التى يعيشها هذا الشعب ..

لكن كيف تقبلين هذا الزوج ..

= ١٤٨ =

فايزة - أقبل مرغمة خوفاً من تدمير أسرتي واحداً بعد الآخر .. إن أم زوجي خادمة ومازالت تعيش في بيت العبيدي .. وكان أبى يصلى كل وقت فى المسجد وهدده باللقاءه فى غياهب السجون ان لم يتزوج ابنته ولما فاتحنى أبى وافقت لحمايته ..

هند - أعرف كثيرات قدمن أنفسهن طواعية وهن عضوات فى اتحاد النساء ويعتبر ذلك تنفيذاً للتعاليم .. شرف جديد حل بالمدينة .. فمثلاً يقولون .. الأرض ملك للجميع وكما تأخذ اعطى والأعراض كذلك للجميع .. من هنا يحدث التفاعل والتقدم والانصهار .. ان بوتقه مشتعلة من النار يختلط فيها الدماء والأعراض والأرزاق هى المنطلق الجديد والبعث القادم ..

فايزة - قرأت مرة فى كتاب .. أن المرأة فى بلادنا ستقول لابنها فى المستقبل .. عليك أن تموت من أجل أرضك ان أباك وأمك قدما من أجلها الغال والنفيس وهكذا تتوارث الأجيال التضحية اليوم فقط عرفت أى تضحية وبلغا فى سيرهما حيا آخر لطول الحديث بينهما وفى لباقة وامتنان افتقرت المرأتان كل ذهبت الى مقصدها .. ولما عادت هند الى منزلها كانت تريد أن تضرب أمها .. لكنها ما لبثت أن تراجعته .. ولم تتناول أى طعام ونامت مرتاحة البال بعد أن خمدت لديها ثورة الغضب .. وكان يوم جمعة فذهبت الى المسجد للصلاة .. وهناك طلبت الهداية والتوبة وقرأت فى كتاب الله وتحذت مع

بعض النسوة ثم انصرفت الى البيت .. وفى المساء طلبت من أمها أن تذهب معها الى طبيب لعلاجها .. وكان الطبيب من دولة أخرى ولم تكن هذه أول حالة يقوم بعلاجها .. وله تجارب سابقة فى علاج الغلمان والفتيات والنساء اللاتى اعتدى عليهن من دبر .. وأخذت هى وأمها تزوران الطبيب للعلاج والملاحظة لمدة جاوزت شهرين .. كانت فترة عزيمة الشآن واظبت فيها على الصلاة والقرآن لازمها فى الفعود والفراش والينظة وقبل النوم .. تغتسل وتصلى وتقرأ طالبة من الله العفو والغفران .. وقطعت صلاتها بالمطعم وسلامة والشارع حتى العسل انقطعت عنه .. وذهبت هى وطفلتها وأمها الى السيدة ريما مرتين للعزاء .. وسعدت الأم والطفلة سعادة كبيرة بما فعلته هند ..

وتم تشييع جنازة الركيك كامل فى محفل رسمى واعتبروه رجلا وضيأ من التراز الأول قدم لبلاده الكثير من الخدمات الجليلة وأنه من شهداء الوطن الأبرار .. ولم يكن البوليس فى المدينة له أى دور فى البحث عن القاتل .. ولا يوجد بوليس فى العالم مساوب من دوره مثل هذا البوليس .. لأن المخبرات هى التى تقوم بهذه الاجراءات وفى الغالب تتكتم عليها لمعرفة أسبابها أو أسرارها وتبعث بتقريرها الى القيادة .. ويكفى المدينة من الشرطة أن تجوب الشوارع وتطلق صفاراتها المعروفة .. هذا وحده يكفى لتخويف الناس وارعابهم .. فاذا ما كالت حادثه قتل من عامة الشعب فليس للشرطة دور ..

فالبحت عن القاتل لا لزوم له بالمرّة .. وإذا كان من رجال العمل
الوطني .. فهذا دور المخابرات .. ثم يقدم تقرير البطولة ويمنح
بعد موته لأمرته بعض الأفياط والنياشين .. وتمنح أسرته دفعة
من المال وقطعة أرض تكفيهم مدى الحياة .. ويعلق على باب
بيته لافتة يكتب عليها .. شهيد الوطن الرفيق .. أو شهيد
العروبة الرفيق .. أو المناضل الأواحد الرفيق ..

كان النهار طويلا والليل أطول والأوقات قاسية على رينا
وكافت تقضى كثيرا من الوقت فى الجبينة مع فدا تتحدثان عن
السيد أمين وذكرياته وأيامه وعافيته ومرضه .. فإذا مشت ترنحت
وإذا جلست وقعت .. وإذا آوت الى الفراش تهالكت .. تصطدم
بالأثاث تنزلق قدمها على الأرض الجافة .. تهوى الكلمات من
فيها .. تساقط شعرها .. كانت ساقها تبرز من القميص وقد
برزت فيها النحافة والضعف .. وفى كل خطوة تخطوها كانت
فدا تلازمها كظلها .. وفى الليال التى يشتد فيها بأسها كانت
فدا ترقد معها فى الفراش حتى الصباح .. ومرت الأيام والأسابيع
بل والشهور وتلك الأعراض تلازم صاحبة البيت ولما أفاقت
قليلا حدثت المحامى بعرض البيت للبيع وكافة العقارات القديمة
بالمدينة .. من بيوت ومحلات .. بعدها بدأت تهيأ نفسها لمرحلة
قادمة .. وكافت تستلقى على ظهرها دون حراك .. تنظر الى
أشياء لم تكن تراها من قبل تدقق فيها وتنشدها أحيانا وأخرى
تسهر بالذهول .. وتتساءل ما هذا .. من هذا .. هل ألم

برأسى شىء .. هل ضرب من الخبل يأخذنى .. ولما تشعر
بالتيه تقوم وتصلى فتستكين وتستطيع أن تجمع ذكرياتها يوماً
بعد يوم مع أمين .. هل بعد هذا الحزن تسطع الشمس يوماً ..
وكانت تعتقد أن كل الرجال مرضى مثل أمين .. ان كل الرجال
مرضى والمرأة تتزوج لكى تتألم من أجلهم .. وأنهم جميعاً
يسوتون وعلى المرأة أن تبكى لموتهم .. والمرأة تبكى على الرجل
وهو حى ظالماً أن هناك حياة قاسية .. واعتقدت أيضاً أن المرأة
فى مدينتها تبكى على الرجل حتى ولو كان فى البيت لأنه غدا
سيكون فى المعتقل أو غياهب السجون المظلمة ..
وتساءلت هل المرأة فى مدن العالم الأخرى تبكى نفس النوع
من البكاء على الرجل أم أنها تبكى نوعاً آخر فيه .. ولما تحيط
بها الأفكار من كل جانب فنزل الحديقة فتشعر بعطر الجو ونقاؤه
.. تمشى قليلاً ثم تصعد الى غرفتها بالطابق الثانى لشعورها
بالخوف فترتمى فى فراشها وتبكى .. انها تقوم بسحاوات
للجروج من أحزانها لكنها تشعر أن الاستسلام لكل ما هو
واقع هو أقرب الأشياء لها وتتنهد ويعاودها البكاء بغزارة ..
وكانت تخرج الى السوق تصحبها ندا ولما تمشى فى الطرقات
ومنحنيات السوق لم تكن تعرف ماذا تريد وتترك لندا حرية
الشراء .. تشعر أنها انسانية خائبة مشدوهة بلهاء .. وفكرت
أن تكتب لأمها عن حالتها ولكن الفكرة سرعان ما خبت لأن أمها
لن تفعل لها شيئاً .. ولما عادت الى البيت هذه المرة سقطت

على السرير تتأوه وتنتحب وخلعت ملابسها ولما رأت ساقها
العاريتين في المرآة شعرت بأنها أثنى، وأنه مازال لديها بعض عالم
النساء الذى لم تره .. هل هى المرأة حقاً وأن شيئاً فى
داخلها يكاد ينفطر أو يتفجر كينبوع الماء .. وشعرت بغصه
فى حلقها لكنها عندما تغطت فى فراشها تأوهت مرتين واحتضنت
مخدعها وفكرت فى حياتها كأثنى .. هل يحق لها أن تتزوج ..
وراحت فى النوم ..

— وفى يوم جاءها سلامة وتناول معها الغداء وحدثها عن
العمل وكانت صامتة لا ترنو اليه .. وكانت تتوشح بعباءة
سوداء فوق فستان واسع طويل لونه كحلى ووجهها الجميل
تكسوه مسحات من الحزن وعيناها زانفتان فى المدى البعيد
تحسوم فى الأفق عبر النافذة .. ولم توجه عينيها بأى نظرة
ولو عابرة الى وجه سلامة .. فهى اما مطرقة الرأس واذا رفعت
عينيها فالى أعلا تحلق فى سقف الغرفة تارة أو فى احدى اللوح
القديمة الجميلة المعلقة بالحائط .. انها تشعر أن تحليقها فى أفق
السماء الممتد عبر السحب الكثيفة أو الباب الكبير المطل على
الحديقة أفضل وأبقى من النظر الى وجه رجل .. فلا شئ مع
الرجل فى الحياة غير الألم والحزن .. كان حيا أو ميتا وأن سلامة
جاء من أجل المال .. فلتدعه يذهب .. وعليها أن تذهب ..
ان آفاق الله وعالمه واسعة ومن خلالها يأتى الله بعالمها وسعته
التي لا تنتهى سوف تجيء فجأة .. هناك فى الشمال ..
الشمال هو ملاذها

ولما عاد سلامة الى الفندق وجد رسالة تنتظره من

شاكر ..

عزيزى .. سأمر عليك فى الصباح .. أريدك فى أمر
هام .. انتظرنى حتى الساعة .. بعدها اذهب الى عملك
وسأمر عليك فى المساء .

مع تحياتى ..

شاكر حسون

وأخذ الرسالة فى جيبه وعاد الى الشارع يهرول من
الخوف وامتلات رأسه بالظنون .. ولما انطلقت قدماه كانت
ترتعش أكثر منها تجرى وكان يقصد الشوارع المظلمة وانعطف
يميناً سالكا الطريق المؤدية الى البحر ولما وصل الى المياه تمنى
لو غرق فيها وتخطى جسراً ولما قابل أحد الأحياء القديمة
وأفه سيعوض ثانية وسط الناس انقلب نحو طريق يؤدي الى
غاية من الأشجار .. انطلق مسرعاً فى هذا الطريق وكلما
دخل فيه نهضت حوله عيدان البوص وأشجار النخيل وفروع
السنط السوداء وهبت عليه رائحة مثل رائحة الصمغ وقفزت
حوله بعض القطط السوداء وسمع وقع أقدام فكان يهرول أكثر
وينظر خلفه فلا يجد أحداً وفجأة وجد نفسه قد أشرف على طريق
غامٍ وسمع صريراً أو صراخاً يمر فى دماغه ووضع يديه فى جيب
بنطالونه وأحنى رأسه الى الأمام مطرقاً الى الأرض وفى أول انحنائه

بهذا الطريق وجد جمهره من الناس تتكوم على جثة رجل ملقى
فى التراب والدماء تلتطخ الأرض من حوله وغطاه أحدهم بورق
الجرائد وزعق واحد من أهل المدينة أ

— يا أولاد الغبرة •• مسنوع ورق الجرائد يلامس الأرض
انه كورق الكتاب فرد عليه واحد من أهل القليل :
— نعرف •• نعرف •• هل معك شرف ؟

وقعد الرجل يجمع الورق فدفعه أحدهم وخلع الرجل حذاءه
ليقذف به فى وجهه الا أن واحدا حمل الرجل بيديا يهدأه وخلع
رجل من جنوب كان جلبابه ليغضى الرجل الذى سقط تحت
عجلات عرية مسرعة حيث كان يجوز الشارع متوجها الى زيارة
قريب له •• واستطاع الرجل أن يمد يده فى جيبه ليخرج بطاقته
•• ونادى بصوت عال :

وردانى محفوظ الجحش •• من يعرفه ؟ الحواويش مركز
الجوانى برانية ••

ولم يرد أحد بمعرفته •• الا أن بعضهم قال •• برانية ••
جحش •• وقالت سيدة من المدينة وقت لحظة •• وردانى يعنى
ايه فرد عليها أحدهم •• يعنى ودين ياودين •• ورد آخر ••
يعنى حلاق الغبرة •• وهزت رأسها وانصرفت •• الا أن رجلا
آخر تساءل •• ليه سمويه جحش •• ورد البعض عليه فى حنق ••

علشان يعيش .. وجاءت امرأة أخرى ترتدى عباءة سوداء فظرت
 شبذرا الى الناس غير أنها سرعان ما تأسفت حزنا وألما على
 العجسة الملقاة وقالت معاتبه وهى تذهب .. يلعن مذهبكم ..
 ايش جابكم .. واجتر سلامة الأحزان بعض الوقت لكنه سرعان
 ما ارتد فى الطريق العكسى يلعن من دهم هذا الرجل فاذا به
 يصوص فى طريق آخر مؤدى الى بعض الحقول ومش كثيرا
 وشرع الليل يهبط وكنا اندفع الى الأمام تمنى ألا يعود الى
 المدينة .. أن يذهب الى أبعد مدى عن شاكر والفضدق وطرق
 المركبات .. عن الناس جسيماً .. وراعه أن يرى امرأة تقعد فى
 أحد الحقول ثم اجتاز بابا من الحجارة القديمة كأنه باب المدينة
 القديم ولما صعد الطريق بعد الباب وجد نفسه فى غابة من
 حشيش الحلفه الطويل مؤدية الى حافة النهر الكبير .. ومشى
 فى سرعة لكنه استشعر تعباً فى قدميه الا أنه تابع سيره حتى
 وصل الجسر القائم على النهر .. وهناك تهالك على الأرض
 وافترشها وفى هذه اللحظة كان الليل قد أمسى تماما .. وشعر
 بأن الحياة تهجع حوله لكنها بعيداً تموج وتزدهر .. وتمنى
 لو كانت الحياة كلها هاجعة ساكنة مثل هذا المكان .. ولما
 استراح قليلاً قام وقعد وأخذ يلتقى بحصى الأرض على صفحة
 الماء ولما انتهى وضع كفى يديه على وجهه وراح يلعن
 حاجته وفقره :

- انى أنقسم .. شىء يضربنى بقسوة على ظهرى يطيح
 برأسى .. ياموج النهر الخالد ياصاحب المياه الصافية .. أنا طيلة
 عمرى كالطفل يعيش بفطرية وبساطة .. لا أعرف أى معنى للحرية
 أو العدالة أو الانسانية .. الحرية هى الحرية وكذلك العدالة
 والانسانية .. أهلك أيها النهر يريدونى أن أقول .. أن الحرية
 الحقيقية هى حريتكم .. وأن الانسانية انسانيتكم .. لكن
 ياسيدى النهر .. ان أحط أنواع الحرية هى حرية الكلام وأن
 أحط أنواع الانسانية هى الأنا .. أنا وأنا ان الانسانية
 الحقيقية أيها النهر العظيم هى الفعل الخلاق والنبيل للناس
 جميعاً .. انك أيها النهر أكثر الخلق انسانية لأنك تروى
 الناس جميعاً وهذه هى الانسانية طالما تروى ظمأ انسان
 أو تروى أرضاً .. وليست الانسانية أن تمنح الحرية من
 انسان لانسان لأنها حق فالحرية منحة من الله لخلقه تنتهى
 بموتهم .. والحرية التى تمنح من انسان لآخر وتغتال فى
 أى وقت فهى ليست حرية بأى معنى ، ولكنها انحذار للمقيم بل
 وكفر بنعم الله .. وأقل تعبير يوصف به مانح الحرية للناس ..
 أنه يكون من أحط أنواع البشر والناس تقبل هذه الحرية تحت
 تأثير الخوف والقمع .. لأنه يحكم بأمر الشيطان .. ويتاجر فى
 الحرية التى منحها الله للناس والحيوانات والنبات والجماد ..
 مثل الهواء والماء والنوم واليقظة .. كيف يكون الحاكم
 مالكا للحرية .. وكيف تكون الحرية الا القوة الرئيسية التى

يملكها أى انسان .. الحرية هى الهواء الذى ينتفسه الانسان
من ولادته حتى موته .. وليست الحرية أن يفتح عباس الصنبور
كل مساء أو صباح ويقول للناس هذه حريتيكم .. ان البداود
والبيئة المنحدرة .. وأصحاب الشذوذ والسفلة وأحط أنواع
البشر هم الذين يتاجرون فى حرية هذا الشرق .. ان الحرية
هى القيمة الحقيقية الوحيدة فى علاقة الانسان بربه وعلاقة
الانسان بغيره .. ان الحرية ليست أردب قسح يأخذ كل نصيبه
منه بالبطاقة .. لقد اندحرت الشيوعية صاحبة البطاقة وأم الشعار
.. أيها النهر العظيم أنا والحد من فقراء كان جئت الى بلادكم
من أجل خنفة عال .. ولكى أحصل على هذا المال فلا بد أن
يكون اتجاهى عباسى .. فهل أبيع حريتى من أجل حاجتى ..
أيها النهر العظيم ان اتجاهى الحقيقى فى داخلى وانى أحتفظ
بالحرية فى كينوتى .. فاذا أراد عباس أن أشتري حاجتى
بحريتى .. فانى أفعل ذلك شكلا وليس مضمونا .. أيها النهر
العظيم .. ان عباس ساذج وتافه .. ماذا يريد أن أقول :

هلا بيك .. هلا .. بأعلا صوتى هلا بيك هلا ..
ولكنى فى داخلى أقول يا أيها الخزى ويا أيها العار .. لعنة
الله عليك وعلى من ولدتك .. انك لحق أجهل من الدابة
وأحقر البشر ..

كان سلامة يجهر بقوله ويضرب الأرض بقدميه وانفلج
حين بادره صوت على سطح الماء يدوى :

— نحن بلد الحرية والعدالة والانسانية •• نحن نعرف ذلك، وأنتم جئتم الى بلادنا من أجل هذه القيم •• أكثر من مليون لافتة وملايين الشعارات طبعت عليها في كل مكان في الحقل في المصنع في غرفة النوم في الجامعات والمدارس في حظائر الحيوانات لأنهم غدا سيفتحون فيها دروسا لمحو الأمية •• كل هذه الشعارات المعلنة والتي أنفق فيها الملايين من أجل ماذا •• انها ينبوع الحرية والعدالة والديمقراطية •• كل هذه المجهودات لتوصيل الحرية والعدالة الى الناس جميعا •• اذهب تحت أي لافتة وافتح صدرك وأنفك لتشم •• واقراً فأنت البعيد لا تعرف •• اتهل من الحرية امسك الأحرف وحديد السور المعلقة واحلب لبن الحرية والعدالة انك لا ترى •• ولا تسمع ولا تشم •• انك البعيد جاهل ان سيدنا عباس جعل الحرية في كل هواء بلادنا معلنة مثل نور الشمس ••

وهوى سلامة على الأرض لقد أيقن أنه آتى بفعل مشين وأنه سيحاكم لا محالة •• ان أمره قد انقضى •• وكان الصوت لامرأة عجوز وتقدم خطوات نحو الماء وقال كمن برجوها : — يا سيدتي لقد تكلمت في الهواء •• صدقيني أيتها السيدة الوقور أنا لا أعرف غير الكلام •• وان الهواء قد حمله بعيداً •• أرجوك يا سيدتي ان حررتكم تعجبني وعدالتكم وانسانيتكم •• لقد أخطأت وأرجو أن تسدي الى بعض النصح ••

صوت المرأة :

— لقد أصبحنا أغنياء وأتتم فقراء وهذه هي حريتنا ..
فأخذ الأرض والقروض والطعام .. ان الذى يعطى المن
والطعام والبيت يعطى الحرية .. ان حريتى ان أحصل على
المال لأقضى به حاجتى .. هذا المضمون ماتعلسنا حتى الآن ..
سلامة — لكن يا سيدتى المال مال الله .. ان الله هو
الذى أتى بالذهب الأسود وهو قادر على نفاذه فى أى وقت ..
المرأة — نحن لا نرى غير عباس فهو الذى يمر على
البيوت .. وهو الذى يطعمنا ويسقينا ويحينا نحن
لا نرى ولا نعرف غير ذلك .. وهو الذى .. وهو
الذى .. وهو الذى ..

سلامة — كلامك ذكرنى حين كنا صغاراً فى المدرسة نهتف
ونحفظ الأناشيد الرثاء ونهتف بالشعارات بأعلى صوتنا .. و ..
ولما كبرنا وجدنا أنفسنا جميعاً فى الهلاك .. كنا نريد أن
نرى أى معنى صغير للعدالة أو الحرية أو الانسانية .. فلم
نجد أى معنى أو أى فتات .. لم نجد الا أشلاء مبشرة ..
السيدة — اسع ان لم يعجبك هذا فارحل أنت وكل
الكاينين .. نحن جميعاً نعرف أن سيدنا عباس هو كل شئ
وكل الناس تعرف .. وهو الذى .. وهو الذى .. وهذا
هو .. وهذا هو ..

سلامة — يا سيدتى نحن جميعاً جئنا من أجل لقمة العيش
وليس لنا فى الحرية أو العدالة ..

ودخل سلامة فى فوهة من الكوبرى تنزل منها درجات
طينية الى جوف النهر .. ظن أنه قد يعوص فى جوفه .. اتجه
ناحية الصوت ونزل الى تحت .. ورأته السيدة العجوز ..
ففغرت فاها واندشت من رجل جسور يقتحم محلها فى الليل ..
لم يكن يرها .. وكان على وشك أن يقع وعاوده شعور
بالعودة حيث ملأه الخوف وتمنى لو فعل لكن قدميه لم تستطيعا
حمله وكاد يصرخ وحاول أن يتفادى حفرة مجاورة للسلم
ونادته قائلة :

— تعال ..

وارتد نحو الحفرة وحاول أن يصعد الدرج لكنها قالت
ثانية :

— لا تخف تعال .. أنا قريبة لك ..

ولما قالت العبارة الأخيرة تذكر صوت ابنة عمته الحاجة
أم سلامة .. هل كان لها شقيقة من أبيها السودانى .. هل
جاء أبوها الى هذه البلاد وتزوج وهذه أختها وراوده صدق
خياله حين رنا اليها .. سيدة قصيرة سوداء .. يا الهى انها
صورة من أم سلامة .. وتشجع واقترب منها وكان يحضن
الهواء الذى يفصل بينها وبينه .. انه فى حاجة الى الحنان ليتها
تكون شقيقتها .. وعند هذه المشاعر والظنون زحف اليها فى
شيق حيث كان يصعد كومة من الصخر الى كوخها وكانت
السيدة تمسك بعضا غليظة وتقف أمام الباب ..

وكلما اقترب منها كانت تقول .. تعال .. تعال ..
ولما وقف قبالتها تأملته ولما اطأنت له قليلا ..
قالت له :

— أى ضرب من الشقاء أتى بك الى هنا ..
سلامة — أنا مسكين يا سيدتى .. حكايتى طويلة ..
السيدة — لم يجرؤ أحد على اقتحام خلوتى فى وسط
النهار .. فكيف تقدم على هذا فى الليل ؟
سلامة — انها الصدفة .. الصدفة يا سيدتى ..
السيدة — هل أنت منهم ..

سلامة — لست من أى أحد .. أنا كانى رحلت الى هنب
من أجل حفنة ما .. أنا من الانسانية الأولى .. ومهما تقدمت
الحياة حولى وكان سوق المدينة عامراً بالسلع والبيع والشراء ..
فلن أبيع نفسى ولن أشتري من أحد نفسه .. الا النفس
مهما كانت ضعيفة .. ولم اشترى من أحد غير طعامى ..
السيدة — اظهر أمانك .. كيف أأمن لك ؟

سلامة — أحكى لك حكايتى فى المدينة .. ليس عندى
غير ذلك وأنا نى حاجة الى نصحك .. لكن من أين أنت
يا سيدتى .. قلت أنك قريبة لى ..

السيدة — أنا امرأة لفظتها المدينة .. وأعيش على حافة
الحياة .. وتقدمت السيدة الى البيت .. وقالت له :

إذا كنت تحمل أى قسمة صغيرة للأمانة، والصدق ..
تعال .. اتبعنى .. أدخل بيتى ..
وتبعها قائلاً :

— سأبرهن لك .. سأقدم دليلاً على ذلك .. جربى
مدى صلاحيتى فى هذه الصفات الطيبة .
ولما دخلا البيت كانت المرأة تراقبه مراقبة دقيقة دون
أن تلفت ارتياحه .. وفرشت له حصيرة على الأرض الرملية
ولما جلس تذكر جلوسه عند الساقية فى بلدته .. وبادرته
قائلة وهى تلتقط بعض الأوراق من الأرض :

— هل تاهت معالمك .. أنت الآن طيب بأس ..
سلامة — أنا يا سيدتى ابن فلاح بسيط تعلم بالأزهر وأكبر
شئء تدربت عليه هو الصلاة وعمل الخير ..

وكانت تتبعه بعينيهما .. ووقفت خلفه برهة لتفحصه
والطمأنت قليلاً .. كان وجه السيدة هادئاً وعيناها غائرتان بين
عظام بارزة وحاجبان كثيفان . أما ذقنها فكانت عريضة تحمل
لحماً طرياً .. متوسطة الطول ترتدى جلباباً أسود وشالاً
كذلك .. وكان حذاؤها ممزقاً .. وتقدمت قبالة وأمسكت
بأحد الأعمدة النخيلية التى انتصب حولها البيت وقالت :
— هل أقدم لك طعاماً ؟ ..

- سلامة — كيف تأتى بالطعام ..
- السيدة — من عند الله .. الناس الطيبون كثيرون ..
- سلامة — اذا أنت تعرفين الله ..
- السيدة — الحمد لله .. أكثر منك بالتأكيد ..
- سلامة — الله أعلم ..

السيدة — ان علاقتى بالله تشعرنى بأنى أغنى الناس فى هذه المدينة .. أغنى من السلطان .. وأن السلطان بجانبى لا شىء لأنه لا يعرف الله .. فكل ما يملكه نار وشيطان وهذا الشعور دائم عندى الآن قلبى ملىء بالايمان .. ان الصلاة عندى فى كل وقت بالنهار والليل طالما أنى مستيقظة .. ان مسبحتى ألف حبة عقدتها من التيل .. أحمد الله انى آتتظر الموت وأنا فى منتهى السعادة للقائه .. ولاحظت العجوز بخبرتها أنه من شمال كان وسألته :

- من أى بلد فى كان ..
- سلامة — شنشور ..
- السيدة — شنشور ايه ..
- سلامة — قرية فى مديرية الملوخية ..
- السيدة — هل تعرف أنى من كان ..
- وهلت الفرحة فى وجهه : صحيح يا سيدتى ..
- السيدة — جدى من هناك وجدتى .. أنا مولودة هنا ..

آه لو تعرف يا بنى أنا جد مشتاقه لهذه البلد .. ان حنيني
اليها هو سبب وجودك هنا ..
وجلست السيدة أمامه وقالت :

— ليس عندي أى مشروب أو سجائر .. سأحضر لك
الخبز الطرى والجبن والزبد .. ما رأيك ..
سلامة — والله انى سأكل من طعامك حتى ولو كانى بتاوأ
بارداً ..

ولما دخلت غرفة صغيرة هى كل البيت لاحضار الطعام
وجدها فرصة ليتأمل البيت المتواضع من حوله .. دكة خشبية
قديمة وضعت عليها قلة ماء ومخدة كالمنطاد ممزقة يبرز منها
أعواد الحشيش الجافة وفى ركن المدخل فرشت بطانية وضعت
فوقها مرتبة مهلهلة .. وفى الركن الآخر وقفت عصا غليظة وعود
من الحديد ومنقذ من الحديد الصدأ .. بنيت الغرفة من
الحجارة القديمة ودهنت بالطين وسقفها مجدول بأعواد الغاب
الغليظة .. وليس بالغرفة نافذة غير طاقة بها لمبة كيروسين أضاءت
هذا المكان الصغير ويتم تهوية الغرفة من الباب المظل على
النهر .. وجاءت تحمل طبقاً قديماً من الخوص العريض عليه
الطعام .. ولما أخذ يتناول لقمات الخبز والجبن .. كانت
السيدة لا تصدق أن رجلاً يجلس فى كوخها وأنه ضيف غريب
أهزرتة أحداث المدينة .. ولما انتهى قام وصلى وصلت خلفه
العجوز .. بعدها انقضت دقائق ثم حكى لها كل أحداثه فى

المدينة منذ وصلها والسيدة تضع كف يدها على وجهها الأيمن تارة وعلى وجهها الأيسر تارة أخرى وهي مستغرقة في سماعه .. وكافت أصوات تنطلق من النهر لدوريات السواحل فتتنظر اليه السيدة فى بسالة وتهز رأسها بأن يداوم حكاياته .. وقدمت له كوبين من الماء وشربهما .. وشعر أنه يحكى للأمه فاسترسل وأسهب ولم يترك صغيرة وكبيرة إلا رواها .. ولما انتهى اضطجع على الحصيرة وقامت السيدة الى الباب تحكم قلبه .. وكانت تستم هل المدينة أصبحت مخيفة الى هذه الدرجة .. ياللسكين .. وراعها علاقته بهند ونصحته بالابتعاد عن هذا الزواج وأن يوطد علاقته بالسيدة ريبا .. وعليه أن يغادر الفندق فوراً الى مكان آخر .. ودعته حين تضيق به الأحوال أن يأتى لبيتها فى جنح الليل .. وقعلت بالقرب منه تفكر وأناملها على حبات مسبحتها .. ورت اليه بناظرها واقتحمت وجهه بنظرة ثابتة قائللة :

— ماذا تريد من هذه المدينة ..

سلامة — بعض المال ..

السيدة — كن عبداً له حتى يأتىك ..

سلامة — ولكنى ..

السيدة — تجرد من كل شىء حتى تحصل عليه ..

سلامة — ولكنى ..

السيدة - اذهب الى بلدك اذا ..
سلامة - أريد أن أقيم بيتاً ..
السيدة - فى بلدك تستطيع إقامة بيت مثل بيتى هذا ..
وَأَمْسَكَتْ يَدَهَا رَمَالَ الْأَرْضِ ..
سلامة - الطموح يا سيدتى .. نريد يسوتاً فى قلب
المدينة ..

السيدة - سيظل هذا العالم غريب لأنه لا يعرف معنى
البيت .. كل فقراء العالم يموتون ألف مرة لكى يعيشوا ..
الفقير حقاً فقير فى تفكيره .. أتمم لا تعيشون الحياة بعمقها ..
انكم تعيشونها من على السطح ..
سلامة - هكذا جرت العادة .. من يستطيع تحطيمها ..
انها أمان يا سيدتى وربما ..
العجوز - أى ربما .. ان هذا الطموح يؤخر الناس وهو
الذى يجعلك تهرب وتهلع وتخاف أليس فى هذا عذاب .. علاقة
مشوية مع هند .. وفقدان حياة من نزل لآخر .. وها أنت الآن
تطاردك يد شاكر حسون ..

سلامة - هل أعود الى بلدى دون نجاح؟ ..
العجوز - نحن أولاد هذه البلدة تتعجب .. كيف
تحصلون على حياتكم من الفئات ..
سلامة - الله يبارك فيه ..

— كيف؟ ..

— أفت تصلى وتعرفين كيف يبارك الله ..

العجوز — نحن هنا ينقصنا التجربة ..

سلامة — ومن العربة والتجربة تأتي حضارة جديدة

حين نعود ..

العجوز — هذا مالا أعرفه .. الناس هنا قبل ظهور

البترول كانوا فقراء .. يسكنون الخيام وأكواخاً من الحطب

والجريد والغاب والبيوت من الطين .. كان الطعام الدائم هو

الخبز والتسر .. ومع هذا الفقر كانوا كسالى ولا يسافرون

الى بلد آخر لياتوا بأى مال .. ولما جاءهم الله بخير فهم

لا يعملون أيضاً واذا سافروا الى بلاد أخرى فانهم يسافرون

للمتعة والتسلية .. لقد جاءوا بالناس من كل بلاد الدنيا ليعملوا

لهم .. وأصبح كل انسان فى هذه المدينة مديراً فقط .. كل

عمله هو التوقيع ..

سلامة — لقد رأيتهم يتعاملون مع الناس كالحیوانات ..

العجوز — لا تنسى أنهم فى أول عهدهم مع المدينة ..

سلامة — ان البترول قدم لنا مجتمع السادة .. حتى

الأطفال سادة .. ان الأطفال هنا تعلموا العظمة .. ماذا سيحدث

فى الغد .. اذا شعر الطفل بهذه العظمة وكبر عليها ماذا

ستقدم يداه .. انها كارثة سوف تلحق بهم غداً ..

العجوز - ربما فى الغد سيقدمون الموت للمنطقة كلها ..
سلامة - أين القراءة وركوب الخيل .. والتواضع وبناء
فكر وعقل الطفل بالأدب والسلوك الطيب .. البساطة والرفقة
والعمل الجاد الذى يخلق عالماً أو صانعاً أو كاتباً أو .. أو ..
يعلموه كيف تعمل يدها وكيف يفكر عقله .. وكيف يتكلم
لسانه ..

العجوز - على العموم يا بنى أصلح من نفسك بالوصايا
التي قدمتها لك .. وأتسنى لو نست فى بيتى الليلة .. لقد أمسى
الليل والبيت بعيد عن المدينة .. انى أخاف عليك فى الصباح
الباكر انهض واذهب .. وابدأ من جديد ..

وكان المطر فى الخارج ينهمر طول الليل، ورشحت منه
حيطان البيت .. وعندما استيقظ فى الصباح سمع الريح
تعصف وتدخل من تحت الباب وتبعثر الرمال حوله غير أنه تجرع
من النوم نوبة أخرى . وسمع السيدة تصلى قبل الفجر ثم
سبحت وكان صوتها يخرج من الغرفة المجاورة له كأنه طائر
ينزل من السماء، ولما كان يتقلب شم رائحة دخان وخبز ..
وقامت السيدة تخبز له الخبز الطازج، وقام ونوضاً وصلى
وارتدى حذاءه واعتذر عن الفطور الا أن السيدة رجته أن يأخذ
رغيفاً طرياً .. وابتظر ولفته له فى ورقة وكررت عليه نصائحها
وأن أول ما يفعله مغادرة فندقه وعليه أن يأتها فى أقرب فرصة

للأطلسيان .. وصافحها في حرارة وانحنى يقبل يدها فشدتها
منه قائلة :

— أستغفر الله يا بني .. أستغفر الله ..

وفتحت له الباب وأشارت بيدها الى طريق على يسار البيت
يوصله بسهولة الى الطريق العام وكيف ينزل الى طرق فرعية
حتى يصل الى عمار المدينة .. وأخذت تدعو له وتذكر أمه
السيادة حبيدة فوده حين كانت تدعو له بوابل من الدعوات
والأمنيات وسألت الدموع على خده وهو يجوز الى الطريق
العام وقال يحدث نفسه :

أماه يا حبيبتى أين أنت .. هل ترين شيئاً مما يحدث لى ..
وجفف الدموع بكف يده .. ودعا الله أن يوفقه وانطلق
وكان شعاع الشمس قد بدأ ينتشر على صفحة الأرض وشعر
بأن شيئاً يجذبه الى ذلك النور ومد يده ليمسك بالأفق وخيل
أنه أن الارض تتهز تحت المدينة التي يراها بعيداً .. ان البيوت
تنحني لتمر الأشعة التي نفذت من السماء وكأن المدينة سفينة
قد هزتها أمواج البحر .. وبهرته حسرة السماء ثم دار الهواء
الرطب في رأسه فانتشى وتراقصت الآمال فيه .. وكان يقضم
الرغيف الساخن وقدماه تدقان الأرض بقوة .. وتساءل
مندهشاً عن هذا التناؤل الذي أتاه فجأة .. ويبدو أن أشعة
الشمس وجمال الطبيعة حوله هو الذي أضفى عليه ذلك ..
وسرعان ما اختفى سلامة من الأرض الفضاء الواسعة ودخل

شوارع الحى القديم وقفل بعد ذلك شعوره ليمضى بين طوابير أهله الكانين الذين يتسابقون فى الصباح الباكر الى أرزاقهم وبدأ صخب الشوارع يدوى فى أذنيه وركب باصاً الى الفندق .. وهناك جمع حاجياته فى حقيبة ودفع حسابه لصاحب الفندق .. ولما نزل ثانية الى الشارع شعر بانفراج فى التنفس ومشى قليلا وصعد الى مركبة أجرة ليذهب الى المطعم ثم يبحث عن فندق فى المساء .. وجد عبد اللطيف قد فتح المحل فى التو .. ولما سأله عن الحقيبة أخبره سلامة أنه سينتقل الى فندق آخر بعد العمل .. وقاله عبد اللطيف رسالة من هند .. وطلع الى السندرة يضع الحقيبة ويقرأ الرسالة وقعد على الأرض الخشبية وفض الورقة ..

عزى فى الله ..

أنت تعرف أنى تدهورت كثيراً ونزلت الى أسفل .. تلك الحياة التى كنت أعيشها كانت أحط من قعر النعال .. هم الذين أخذونى عند هذا القاع .. كنت طفلة بريئة مثل ملايين أطفال العالم .. لكن حياتى كانت عبداً لحياة الخونة فأذلونى ونكلوا بى وتدهورت بى الحياة كما قلت وعدت فتاة ضالة ثم امرأة أكثر ضلالاً .. وكان آخر هذا العهد علاقتى بك .. لم يكن زواجى بك هو الزواج الذى تمناه أى امرأة .. لكنه زواج الذين جرحوا فى حياتهم أو الذين ضربتهم الحياة .. أو هؤلاء العرجى والضعفاء فى هذا العالم .. لقد اختفى هذا

الضلال والظلام من حياتي وأظنك تسعد بذلك .. ان الله نور لي طاقة من النور والحب والهداية .. أحببت بيت الله ولا أكاد أبرحه .. تزينت رأسي بالحجاب .. أنا خائفة عليك .. وأشد خوفاً على الغرباء خاصة الكانين .. لا تتورط مع جهاز المخابرات هنا مهما قدموا لك من مزايا .. ان كل كاني يؤدي مهمته .. يتم اعدامه .. اختفى في أى مكان لا تظهر .. حاول أن تعمل في المدينة وأنت مختفى ان استطعت .. لا تتعرف على أحد من المدينة أو من كان أو من أى بلد .. أنت أطرش وأصم ولا ترى أى شيء واذا سألك أحد عن اتجاهك .. قل له أظ حمار لا أعرف غير الفول والطمية .. أرجو أن تلمس لي العذر فلن آت الأراك .. وأحمد الله انى انقطعت عن العمل .. ان علاقتى بالله أقوى من أى شيء .. وان يستطيع أحد أن يجبرنى على العودة الى الماضى حتى ولو أدى ذلك بى الى الموت .. أرجوك أن تفهمنى وتساعدنى .. مزق عقد زواجنا لديك .. لقد بدأت طريق الحب الحقيقى والهداية ..

مع أمنياتى ..

هند يوسف القشيش

ولما انتهى رفع رأسه وخرج منها شيء مثل دخان عفن وتنفس ملء صدره هواءاً ذكياً عليلاً .. وقال وهو يضع الرسالة فى حقيته :

— لله معك يا من كنت زوجتى •• ليتنى أجد النور الذى
أخذك •• والتمس الطريق الذى تسيرين فيه ••

ونزل يعمل مع عبد اللطيف حيث أخبره بموضوع هند
حتى يخرج ما يوسوس فى صدره بشأن هذه العلاقة ولتستريح
نفسه ويكون أكثر وداً •• لأنه لاحظ أن عبد اللطيف فى
الفترة الأخيرة يضايق هند ويشاكسها وهذا دليل على أنه يضمّر
للسحيطين حوله فوايا غير خيرة •• وكان سلامة سعيداً طول
اليوم حيث بدأت بوادر حياة جديدة •• أولها زيارته للسيدة
العجوز عند الجسر وثانيها النهاية الطيبة مع هند •• وفى المساء
ذهب الى نزل جديد •• وشعر أنه وضع قدميه فى بداية طريق
واسع فسيح ••

الفصل الثالث

ومرت الأيام نزل فيها سلامة فى فندق بوسط المدينة •• وعلمت قيادة التنظيم بانقطاع هند عن العمل وانتظامها فى بيت الله وأثارهم لباسها الحشمة وارتداء الحجاب •• وانعدام الفائدة من عبد اللطيف فلم يصلهم من مدة تقارير منه عن الكانيين فى المدينة •• وقرروا اختبار نواياه خاصة وأنه مخبر قديم ولديه كثير من أسرار العسل •• أما السيدة ربما فباعت كثيراً من ممتلكات زوجها وكان الدور على قصرها الصغير •• ولما بلغ انقطاع سلامة عنها أكثر من شهر زاد قلقها •• وركبت عربة أجرة وقصدت الحانوت فلم تجده وهناك التقت مع لطفى الذى كان يقوم بتنظيف المحل قبل مغادرته •• وأخبرها أن سلامة ينزل فى أحد فنادق وسط المدينة •• ولما سألته عن عنوانه فأخبرها أن سلامة لم يعلمه به •• وحدثها كثيراً عن المحل وحاول أن يتودد لها •• ثم أخبرها بأن سلامة على علاقة بالسيدة هند •• وأن سلامة أعلمه بأنه متزوج منها ولقاؤهما دائماً بسندرة المحل ••

انهارت ريسا برأسها على الطاولة وأمسكت بشعرها وشهقت وأغمضت عينيها ثم هزت رأسها •• وقالت وهى تحاول جمع قوتها :

- ومن أدراك بهذه التفاصيل ..
 عبد اللطيف - سلامة أخبرنى بنفسه ..
 ريسا - ويلتقيان هنا ..
 عبد اللطيف وهو يحمل كوب ماء يقدمه اليها :
 - فى السندرة .. رأيتهما بعينى عدة مرات فى الصباح ..
 ريسا - منذ متى ..
 عبد اللطيف - منذ وقت طويل ..
 ريسا - لماذا لم تخبرنى ؟ ..
 عبد اللطيف - اعتبرت هذا تطفلا منى .. وعزمت أن
 أخبرك عندما تسمح الظروف بذلك .. لكنهما ..
 ريسا - لكنهما ماذا ..
 عبد اللطيف - أخبرنى سلامة بأن العلاقة انتهت منذ
 أيام قليلة .

ريسا - وهل انقطعت بالفعل ؟ ..
 عبد اللطيف - فعلا لم تأتى هند الى هنا منذ مدة ..
 ريسا - الأماكن كثيرة فى المدينة ..
 عبد اللطيف - ريسا ..

وغادرت المحل وهى تتألم وأخبرته بأن يعلم سلامة بمجيئها
 وأنها تنتظره فى الغد .. وتهيأ لها وهى تمشى أنها تخرج
 واستطاعت الحصول على مركبة وضعت نفسها فيها حتى البيت ..

وقادت على ندا كأنها تصرخ وهى ترتدى فى أحضان شجرة
قرب الباب ..

— ندا .. ندا .. اغيثنى .. أنا تعبانة ..
.. أنا ..

ولحقتها السيدة قبل أن تقع .. ماذا بك يا سيدتى .. هل
حدث شيء .. واحتضنتها الخادمة بذراعيها ودخلت بها البيت ..
وندت أصوات فى داخل ريسا وقالت وهى ترتدى على أرض
الصلاة .. وكان صدرها ينزق :

— أنا نعبانه مرهقة .. أسرعى بالطبيب .. أدخلينى غرفة
أمين وحملتها الى الفراش الذى كان ينام عليه أمين وغطتها
وحملت عنها ساعتها وحذاءها وجوربها وبللت كمها
بالماء ومسحت على جبينها ثم فكت أزرار قميصها .. وهاتفت
للطبيب الذى حضر بعد العشاء ولما قامت فى منتصف الليل
أخبرت ندا بأن الحياة لم تعد تساوى عندها شيئاً وأنه لا أمان
عند الأحياء .. وأن العدر والعنف والمال كل شيء فى الحياة
التي يعيشها الناس الآن .. وأى معان نبيلة ليس لها مكان ولم
يعد فى الحياة غير الألم .. راحت تبكى بمرارة بالغة وقلبهما
فريسة للحزن وأمسكت ندا يدها قائلة :

— لا تبكى يا ابنتى .. مازال فى الحياة جمال وأمل ..
من الذى أبكائك يا أطيّب النساء ..

ريما - أليس هناك امتداد للأعمال الطيبة .. ألم يرى في
عيني معزتي وتقديرى له ..

ندا - من هو ..

ريما - ألا يعرف أنى عملت هذا من أجله وأنى كنت أنوى
أن يرحل معى الى الشمال ..

ندا - من هو يا سيدتى ..

ريما - سلامة ..

ندا - الكانى ..

هزت ريما رأسها بأنه هو ..

ندا - وماذا حدث منه ..

ريما - يلتقى مع هند فى حانوتى ..

ندا - هند .. هند تفعل هذا ..

ريما - مات زوجى وماتت الدنيا من حولى .. صديقتى
الوحيدة هند .. وهذا الرجل الغريب قدمت له الخير فقدم
لى السم فى بيتى ..

ندا - لا تنتظرى من الناس أى خير .. الخير من الله

وحده ..

ريما - ولكن .. ثم بكت وحاولت ندا اسكاتها قائلة :

- وهذا هو الكانى يشبع بالمال ثم ييطش ..

ريما - العيب على هند ..

ندا - وعليك ..

ريما - لماذا؟ ..

ندا - قلبك الطيب وعطفك على الناس ..

ريما - هذه أخلاقي وستظل ..

ندا - لا تبكى إذا على أحد ..

ريما - أنا انساة ..

ندا - وماذا تريد من الكانى .. الكانى فى بلاد الغربية

لا يعطى شيئاً .. انه يأخذ فقط ..

ريما - ولكنى ..

ندا - ماذا ..

ريما - أجه .. أجه ..

ندا - هذه المشكلة اذا .. اهمنى .. سأتدبر

الأمر معك ..

ريما - هل تساعدنى .. حاولى مساعدتى ..

ندا - هذا شىء مفروغ منه .. ليس لى فى الدنيا غيرك ..

وكان اليوم التالى شديد القساوة .. تداعت ريماء كائن

صخرة سقطت على رأسها .. وكانت تقول وندا بجانبها ..

الناس سقطوا فى لحظة ضعف والمدينة تدوس الجميع بأقدامها ..

وكافت ندا تقول لها :

- ماذا تعنى .. الناس سقطوا والمدينة تلوسهم ..

ريما — أنا لن أسقط وسأخذ سلامة من هند ..

ندا — كل ما تريديه تناليه إن شاء الله ..

ريما — إن امرأة طاهرة وطفلاً برئياً وشيخاً وقوراً وشاباً
مؤمناً .. إن هؤلاء مازالوا في مدينتي .. هؤلاء لم يسقطوا
أبداً .. لم يسقطوا أبداً ..

ندا — يعنى هؤلاء لن تدوسهم المدينة ..

ريما — سيقيمون مدينة جديدة ..

ندا — أنا لا أفهم تماماً يا سيدتي .. لكن الله سيكون
معك دائماً ..

وأفاقت ريما بعد الغداء وارتدت فستاناً أسود وشالاً
وأخذت تتشى في الحديقة تصحبها ندا ثم جلست بين الزهور
والحشيش الأخضر .. ورغبت سيدة البيت أن تسير قليلاً في
شوارع الحي .. وخرجت ومعها ندا تخطو خطواتها وتكرر
أقوالها .. وتبعث في داخلها الأمل والحياة .. سارا في طريق
هاديء بعيداً عن أعين الناس .. وكان المطر في السماء يتساقط
حبة بعد أخرى وظهرت المركبات الكبيرة والباصات وعربات
النقل الضخمة .. فأنحنا إلى شارع جانبي وسرعان ما عادنا من
طريق معاكس إلى البيت .. وبقينا بعد ذلك ربع ساعة يداعبان
أوراق الشجر ويقطفان ثمار البرتقال في الحديقة .. وكلما قالت
ريما شيئاً ردت عليها ندا .. معقول .. ياه .. آه

يا سيدتى .. ربنا يعطيك .. وكانت ربما تسعد بهذه الكلمات
وتحب أن تسع منها المزيد لتأكدها من اخلاص ندا لها .. انها
الانسان الوحيد الذى يبعث فى داخلها الأمل .. وبدأت ربما
تجمع أفكارها ولما استنشقت عطر الجوى بدأ المطر يسقط ..
فهرعا الى الداخل يقفان مصارع النوافذ بالدور العلوى
وأشعلت ندا المدفأة وشربا الشاي ثم راحت ربما فى النوم
وذهبت ندا تقضى أعمال البيت ثم جهزت طعام العشاء ..

.. وفى صباح اليوم التالى أبلغ عبد اللطيف سلامة
بالذهاب الى السيدة ربما .. وسرت فى جسده رعشة الا أنه
تمالك نفسه وقال: ولماذا أذهب ..

فقال عبد اللطيف - كانت هنا بالأمس .. وضحك ..
بعينها هنا ..

سلامة - وهل أعلمتها عن شيء ؟ ..

عبد اللطيف - عن كل شيء وابتسم ابتسامة خفيفة
تستلخ خبثاً ..

سلامة - هل علمت بأنى ألتقى .. أقصد كنت ألتقى مع
هند هنا ..

مط عبد اللطيف وجهه الى الأمام وقال :

- هى علمت .. لكن ليس منى ..

سلامة - هل تحلف باليمين ..

عبد اللطيف - صدقنى من غير أى يمين علمت .. ريمما
من هند ..

سلامة - عبد اللطيف .. لقد عملت من أجلك ما لم أعمله
فى أحد .. أتيت لك بالخير وأنت تتصيد المكيدة لى .. لماذا ..
على العموم سوف يكون معك حساب ..

وخرج من المحل غاضباً ودلف الى عربة أجرة قاصداً
بيت ريمما .. وحاول أن يمسك بتلابيب نفسه وأن يدخل اليه
بعض الجسارة .. ولما أدرك أنه يحمل رسالة هند اليه والعقد
العرفى تملكته الشجاعة والقوة .. وقال يشجع نفسه .. أجرى
على الله .. وانطوت العربة فى المدينة تجوب حياً بعد آخر ..
وكذلك نفس طيبة على نفس أخرى مضت كانت مشوبة .. كانت
نفسه بالأمس لا تهتدى .. انه اليوم يصحو .. يرى المدينة
والناس كأنه يمسك بالأشياء ويثق فيها .. وتقدمت فدا أمامه
تدخله البيت .. وفى غضب بلغه الأدب دون أية عصبية دخلت
ريمما عليه قائلة دون أن تصافحه :

- أهلا بك ..

ووقف قائلاً :

- أهلا .. أهلا ..

وجلست قبالة بوجه يمتلأ بالحزن وعيون تورمت من كثرة
البكاء .. لكن وجهها فى كل أحوالها ينبثق منه النور.

والطيبة .. وقالت وهى تنظر اليه محاولة التضاع نفسها بالتعقل
والحكمة :

— لقد ساقنتك الأقدار الى هذا البيت وسكنت .. كانت
تريد أن تقول كلاماً آخر لكنها توقفت ..

سلامة — نعم ساقنتى الأقدار .. وماذا فى ذلك
يا سيدتى .. اننا جميعاً تدفعنا الأقدار ..

ريتا — أنا لم أفعل لك الا كل خير ..

سلامة — أقدر العمل الطيب الذى قدمته لى ..

ريتا — علمت يا سلامة .. أولاً أنا لا أحاسبك .. علمت

أنك تلتقى مع هند فى المحل ..

سلامة — فى أول عهدى بهند كنت محمولا بكل قوتى أن

أفعل أشياء دون أن أقدر نتائجها .. ولما وجدت هند تندفع

الى بقوة وأنا لا أخفى عليك كنت ايجابياً معها .. فكرت فى

زواجى منها رسمياً .. وأخبرتني أن ذلك الزواج يتأخر فى

اجراءاته .. ولم تكن تستطيع أن تنتظر .. فتزوجتها عرفياً ..

ولم يكن هناك مكان تلتقى فيه فكان المحل ..

فغرفاه ريتا مندهشة يحذوها أن تسمع مزيداً من

التفاصيل .. لكن سلامة سكت فقالت :

— التقيت بها بعد افتتاح المحل أو قبله .. ولم يكن يقدر

أن يقول لها أن أول لقاء تم بينهما كان هنا فى بيتها لكنه

لم يتسنم وقال :

— قبل أن يشتغل المحل التقيت بها ..

ريما — أين ..

سلامة — فى المحل ..

ريما — كثيراً ..

سلامة — كثيراً ..

ريما — فى الصباح أو المساء ..

سلامة — فى كل وقت ..

ريما — كنت أظنك أقوى من ذلك ..

سلامة — أنا .. انها أول مرة فى حياتى .. لم أر امرأة فى حياتى قبل هند ولما اندفعت نحوى لم أكن أستطيع مقاومتها .. شعرت بالاستسلام بل أقدمت نحوها أنا الآخر ..

ريما — وهل رأيت فى لقاءها سعادة ..

سلامة — نعم .. كان فيها سعادة لا حدود لها ..

وكنتم ريما غيظها وقالت :

— الى متى ستظل علاقتك بها ..

سلامة — لقد انتهت ..

وانفعلت وكأنها تصرخ :

— أه .. أه .. لماذا ..

وأخرج ورقة من جيبه .. انها رسالة هند .. وقال :

— هذه رسالتها ..

وأخذتها بأصابع مرتعشة وقرأتها مرتين وثلاث .. وسرت
السعادة بوجهها وقالت :

— هل هي صادقة فى مقصدها ..

سلامة — ان لم تكن صادقة فلقد قررت اهاء العلاقة ..
وأخرج العقد العرفى من جيبه ومزقه .. وحاولت أن تشييه عن
تزييقه لكنه أنهى على العقد وقعدت على الأرض تجمع قصاصاته
وتحاول قراءتها لكنها لم تستطع أن تتبين أى معنى فحملته فى
يديها الى سلة المهملات بالصالة .. ولما عادت كان يضع
ساقاً على الأخرى وبدا عليه الرضا .. وابتسمت ريمًا ابتسامه
هبلت وجهها ونظر اليها بعق كأنه يقول لها أنا لك وحدك ..
وكأنها تفهم ما يعتمل فى نفسه فقالت :

— هل تسمع كلامى من الآن ؟ ..

سلامة — قولى وأنا أسمعك ..

ريما — أنت فى مدينة غريبة وعليك أن تستشيرنى فى أى
أمر .. أنت مثلاً رحلت من فندق الخليج الى فندق آخر ..
لماذا ..

سلامة — ان رجل المخابرات يطاردنى ويحاصرنى ..

ريما — ليتنى أستطيع قتلهم جميعاً ..

سلامة — أليس من الأفضل تغيير عبد اللطيف ..

ريما - لن تجد أفضل منه فمعظم الكائين هنا من طينة
واحده ..

سلامة - هل يعتبر هذا مكافأة لأنه أخبرك بعلاقتي مع
هند .. وأن بقاءه واستمراره تشجيعاً لذلك ..
ريما - لقد عرف الزبائن وعرفوه .. ولماذا تخاف من
وجوده .. وهزت كتفها وأردفت : أنجعله رقيباً عليك .. أخاف
عليك من النساء .. هل هذا يضيرك في شيء ..

سعد سلامة لاعرابها عن غيرتها وضحك عاليًا وقال :
- وجوده لا يضيرني .. طالما هذه رغبتك ..
ريما - اتفقنا .. على أن تأتي كل يومين لمتابعة سير
المحل ..

وغادر سلامة البيت وودعته ريما وهي مملوءة بالرضا ..
وفي اليوم التالي ينبس مع عبد اللطيف بكلمنة واحده ..
كان كل منهما ينصرف الى عمله في صمت .. كان لطفى يتوهم
أن تطرده السيدة مثلاً أو توبخه على الأقل فيترك سلامة
المحل .. ولما أيقن أن السيدة لم تفسد على سلامة شيء بدأ
يفكر في شيء آخر يبعد سلامة عن المحل فقرر أن يكتب فيه
تقريراً يسلمه الى زجل المخبرات الذي يعمل معه وتكررت
زيارات سلامة لريما وكان في كل مرة يتقرب اليها وهي الأخرى
تفعل يتحدثان في أمور مختلفة يلتقيان ويختلفان وكانا في النهاية

يستسلم أى منهما للآخر، وكأنه يريجه أو يرضيه .. كان ينظر إليها فى عدى محاولاً فهمها أو سير أغوارها، وكانت تعد له أشهى أنواع الطعام وأجودها ولا تبالى بأى تكاليف لأى وجبة تعدها له .. وتجهز له العطارى التى تعملها بيديها ثم تطورت عنايتها به فكانت تكوى له ملابس بعد أن تقوم بغسلها فبات على سلامة آثار النعمة الكاملة .. طعام .. ملابس نظيفة .. مال .. امرأة تعتنى به وتتقدم نحوه بخطى عاقله .. غير أنها فى كل مرة كانت تتحشم عن المرة سابقتها ولم ترتدى فستاناً قصيراً يفسح عن ساقها أو مكشوفاً يظهر صدرها أو ضيقاً يثير مفاتنها أو .. أو .. لقد كانت معه مرة وبحضور هند ما جنة صاحبة .. ان أحداثها بعد ذلك وخاصة موت زوجها جعلها أكثر تدبراً وأشد حشمة .. تراعيه وتخاف عليه وتعتنى به .. لكنها لم تقترب منه أو تلامسه وكان هو كذلك فزادت دائرة الاحترام بينهما قوة وتكونت بينهما معزة أدبية لم تكن شائعة فى تلك المدينة .. وكانت ربما تحرص دائماً أن تكون ندا فى أى جلسة .. أو تناول طعام أو .. عملاً ألا يكون الشيطان ثالثهما .. ومرت الشهور .. المحل يعمل والخل يرتفع .. والعلاقة القوية بين سلامة وربما وندا تزداد يوماً بعد آخر مودة وعناية ورعاية .. وهند تنصرف الى العبادة وتتكب فى البيت على قراءة القرآن والكتب الدينية .. وطفلتها تكبر وتنام فى أحضانها وأم هند تسعد بتلك الحياة الجديدة النظيفة

والزوج ينصرف على تجارته فى الجنوب .. وعبد اللطيف يتوق الى معرفة أى امرأة من المدينة ليسعد كما يسعد سلامة .. وفى يوم غاب سلامة عن عمله فى المحل لمرضه .. ودخلت المحل سيدة من المدينة لا تتجاوز العقد الثالث من العمر اشترت السمك المشوى وتفحصته ملياً وذهبت .. وفى يوم بعد انتهاء العمل راقبت السيدة المحل من بعيد حتى خرج سلامة ودلفت الى المحل قاصدة لطفى قائلة :

— أنت كانى ..

عبد اللطيف — نعم *

السيدة — منذ متى هنا ..

عبد اللطيف — منذ خمس سنين ..

السيدة — أريد التحدث معك ..

عبد اللطيف — فى أى شىء .. أنا تحت أمرك ..

السيدة — بعد ساعة يناسبك ..

عبد اللطيف — يناسبنى انصرفت المرأة ..

وسعد لطفى بها وقام بكنس وتنظيف الحانوت على وجه

السرعة .. وارتنى ملابسه وتناول بعض الطعام وجلس أمام

الباب يرقب ظهورها .. ولما هلت فى الجانب الآخر قام وقفل

المحل وجازت الشارع واقتربت منه تحضين عباءتها السوداء

بيدها على صدرها وقالت كمن تهمس فى أذنه :

— تعال خلفى ..

وتبعها حيث وقفت تبحث عن عربة ودلفت اليها وهو وراءها
بالمقعد الخلفى .. ولما انسدت العباءة قليلا بانث ملابسها
الزاهية الناعمة وفاحت رائحة العطر تعبق فى المركبة الصغيرة
وتمايل فى جلسته وهمس قائلا :

— الى أين ..

السيدة — الى البيت ..

هز رأسه وقال :

— هل يوجد أحد فى البيت ؟ ..

السيدة — أمى ..

عبد اللطيف — وماذا تريد منى ..

السيدة — التعرف عليك ..

وتأقت نفسه الى المجهول .. لقد كان يتمنى امرأة
وجاءته .. أليس هذا ما أراده .. ودخلت العربة أحياء جديدة
فى أطراف المدينة .. وعند بيت صغير أحاطته حديقة يلفها سور
عال وقتت العربة .. لم يكن بجوار المنزل أى بيوت أخرى ..
لكن على مرمى الرؤية توجد بيوت متناثرة لم يتم بناؤها بعد ..
وتخلا البيت وتقدمته المرأة بضع خطوات ونادت قبل ان
تصل الى الباب الداخلى :

— أمأى .. أمأى .. معى ضيف .. معى ضيف ..

وهل صوت قبل أن يرى عبد اللطيف .. هلا .. هلا

بالضيف ..

وألقت المرأة العباءة على الأرض المكسوة بالسجاد وجاءت
سيدة فى العقد الخامس من عمرها صافحت الرجل وتقدمت
نحو باب غرفة قائلة :

تعال هنا .. اتفضل ..

ودخل وقعد فى غرفة واسعة متناثرة الأثاث وجاءته
المرأة قائلة :

— هل تخجل من وجود أمى .. انها ستتنصرف بعد قليل ..
وفغرفاه الرجل وقال :

لا .. لا ..

وجالست قبالته مسترسلة :

— رأيتك منذ أيام .. وكنت أود منذ وقت التعرف على
رجل كانى له نفس الوجة .. نفس الملامح .. أريد رجلا من
المكافحين .. أسمر يعمل بيد وبالأخرى يمسح عرقه .. منذ
ولدتنى أمى وأنا أبحث عن شىء غريب .. أى مختلف وبعيد
وليس أمامى هو مطلبى وأنا مندهشة من وجود هذا الكرم الكبير
من الكافيين فى كل مكان .. واحترت فى الاختيار الى أن وجدت
وجهك الأسمر الغير مهندم الملامح .. أحب هذا النوع من
الوجوه .. هل لديك مانع ..

عبد اللطيف - لا .. لا .. كان ينظر إليها فى صمت
وتمنى لو تكلمت كثيراً لتفصح عن نفسها وماذا تريد .. وتساءل
هل هذه المرأة تريد رجلاً حقاً .. وبهذه الطريقة المباشرة ..
وحدثت فيه المرأة بعينين سوداوين واسعتين وقالت :

- أليس هذا حقى .. أليس كذلك .. ألسنت حرة ..
عبد اللطيف - حرة طبعاً ..

وشهقت دون داع ووضعت ساقاً على الأخرى وضحكت
وسرت ضحكتها فى أرجاء البيت .. ودقت الساعة تعلن السابعة
مساءً .. وتداعى شىء فى داخه فلم يكن لديه أى حياة أخرى
غير العمل .. وعليه أن يدع نفسه ملكاً لأى شىء آخر انه يريد
أن يعرف ويجرب الحياة مع الآخرين فى البيوت وخلف الجدران
ومع أى امرأة كانت .. المهم أن تكون هذه المرأة من المدينة
.. وقال لنفسه أشعر طيلة عسى بأنى رجل حقير ليس لى أية
قيسة واليوم لأول مرة فى حياته أدرك أن له قيمة .. وجاءته الأمد
تعرب له عن سعادتها برؤيته وصافحت ابنتها وخرجت ..
ولهت عبد اللطيف حين طلعت عليه المرأة وهى شبه عارية ..
انبهر وتلعثم وأثير .. وأخذته من يده .. الى غرفة بها سرير
ودولاب وأجلسته على مقعد صغير قائلة :

- اخلع ملابسك حتى أعود اليك ..
وبداً يخاف لكنه خلع حذاءه .. وقال لماذا أخاف ..

إن هذا فراش وهذه امرأة وهذا بيت •• من أى شىء أخاف ••

— يا خرابى يامه ••

ودخلت عليه تغنى وترقص •• وانتشر فى الغرفة عالم غريب
اختلط فيه العطر مع جسدها الذى يتراقص ويلتوى ويتمايل
بلا خجل •• وكانت عيناه تبرق من الدهشة •• وفى لحظة أظلمت
الأنوار حول البيت وسكنت الحركة المؤدية اليه •• وجاءت
أصوات المدينة البعيدة •• أصوات منقطعة تحمل موجات الهواء
الساخنة •• وفى لحظة أخرى انقطعت كل الأصوات البشرية
حول البيت •• حتى صفير العربات من قريب أو بعيد •• لحظة
شاملة جاءت بالصمت فأتى شىء يتعلمه عبد اللطيف هذه الليلة
•• ولما صرخت المرأة آخر الليل كان لطفى يسقط على فراش
ناعم من كثرة التعب الذى ألم به •• ومن سذاجته أنه فى الصباح
عندما تقلب فى فراشه سعد لأنه على فراش امرأة من المدينة ••
كان هذا مبلغ سعادته الذى تسناها كثيرا ••

ومرت الأيام ولم تجد المرأة غير لطفى ولم يستطع عبد اللطيف
أن يبتعد عنها يوما واحدا •• وهبط حقد عبد اللطيف
على سلامة ومزق التقرير الذى أعده عنه وكان ينوى تقديمه
الى رجل المخبرات •• وفى يوم حدث سلامة عن حكايته مع
المرأة ونصحها بالزواج منها لأن هذا حرام •• الا أن لطفى
لم يستطع مفاتحة المرأة فى ذلك اعتقادا منه بأنها ليست امرأة
ترضى بالزواج •• وفى الوقت الذى كانت تتمنى الزواج منه

لو كانت حرة استدعيت الى أحد المكاتب وقبلها المسئول هناك
وبادرها قائلاً :

— حان الوقت لتقومى بالمهمة ..

ناهد — قمت بسهام كثيرة .. هذا الكانى غلبان أتركوه
فى حاله ..

بصق الرجل فى وجهها :

— يا بنت القحبة هاشتغلى مدرس ..

صرخت ناهد قائلة :

— انهم مساكين قاموا بخدمتكم وفى النهاية تقتلوه ..

أليس له أهل أم وأب الرحمة .. الرحمة ..

الرجل — هذا على الذى أقست من أجله .. هذا وغيره
معه بعض أسرارنا فى العبل والمتعامل .. نحن لا نريد أن يذهب
بها الى بلده .. انتهت مأموريته بالنسبة لنا ولم يعد يقدم لنا
شيئاً جديداً .. هو بالنسبة لنا أحد العوامل التى استهلكت
وعلمينا التخلص منه ..

ناهد وهى تاسح دموعها :

— تخلصوا منه .. أمامكم .. أحضروه واعدموه ..

الرجل — لا بد من ترتيبات واجراءات وأوراق واتهامات
بالملف .. لاستيفاء الأرشيف ..

ناهد — وماذا يعنى هذا وأنتم تملكون كل شىء .. لا أحد

يسألكم أو يحاكسكم .. أو يراكم ..

الرجل - الوطن فى النهاية .. ألم تقرأى شيئاً هل نسيت
ألم تتعلمى ..

ناهد - أبكى على انسان فى داخلى أشعر أنه يعدم ..

الرجل - يا قحبة لقد أتينا بك من مواخير المدينة ..

ناهد - كنت حرة عندما أذهب الى هذه الأماكن .. وكانت
حزيتى لها أبواب .. أذهب اليها وقتما أريد وأغادرها كذلك ..
لكن حريتككم .. وسكنت ..

الرجل - لولا ان هناك بعض العمليات ستقومين بها
لأعدمتك اليوم ..

وأغى على ناهد ووقعت على الأرض ترفس وتضرب الأرض
بيديها فقام الرجل وأحضر الماء وسكبه على وجهها ورأسها
وتركها .. ثم نادى على رجل ضربها على وجهها بيده حتى أفاقت
من غيبوبتها ..

وأخرج ورقة من مكتبه وقرأ عليها أسماء :

عبد الرحمن محمود • ثروت قلقاس • عماد محى الدين

• عبد العظيم أهو شاطية • عبد الحميد السيد • حداد

الصاوى • عبد اللطيف يحيى • أحمد حلمى •••

••• - هل أعددت التقارير عن هؤلاء ..

••• ناهد - كل التقارير عن هؤلاء عدا عبد اللطيف يحيى ..

الرجل - وماذا تنتظرين يا .. بلاش كفايه .. أسجوع
واحد أحضري كل التقارير عنهم حتى تنتهي منهم ..
هزت رأسها قائلة :

- هذا سهل .. سوف أفعل بعد يومين فقط أكون ..
أكون .. و .. ومتى يكون دوري ..

الرجل - أنت ابنة الوطن .. لا .. لا يا معوده .. (يعني
لا يا امرأة) ..

ناهد - هل تعتقد أني عبيطة .. أين ايمان طرييه .. عالية
زيدان .. ايمان العبيدي .. نوال مصطفى .. فوزية محمد ..
أليس هؤلاء بنات الوطن .. أين ذهبن هؤلاء ياسيادة الرفيق ..

قام الرجل يتمشى في الغرفة وتطلع عبر النافذة وأشعل
سيجارة ورجع نحوها يقول :
- هذا مصيرنا جميعا ..
ناهد - وأنت أيضا ..

الرجل - وأنا أيضا .. كفى .. كفى .. وجلس على مكتبه
يكي بصوت مسوع ..

- وقال باكيا على عمره كله ..
- مم كانت تلك الفتنة .. فتنة ألت بالمجتمع كله ..
هل كنا على حافة الكفر وأعمالنا كانت سيئة فألقى علينا الفتنة
من هؤلاء القوم .. هل هي نار اندلعت وكوت كل بيت وحرقت

الشوارع والأزقة وأكلت جدران البنايات .. اكنوت العقول
وأصبح الناس عملاء فى بلادهم يعملون ويعبدون ويقدمون رجلا
واحدا .. لقد ساقهم الى ذلك .. أى معتقدات خرجت علينا
من باطن الأرض كأنها اللهب الجبار أو الأفعى الحمراء ..
فلا معنويات ولا روح ولا عقل يفكر حتى أن يتوهم الناس
شيئا قد يرحمهم .. حتى هذا الوهم غير موجود .. هل هى
ضروب الشقاء انشقت فى الأرض لتتهم الجميع .. وسكت ..
ورفعت عينيها نحو مدهشة وسكت الصوت قليلا ..
فبادرته قائلة :

— أصحيح أت أحد الرفقاء فى المدينة وهل يعانى أحد
منهم بما قلت .. من الذى أرغبك أن تكون رفيقا .. هل
أسابك هذا الجنون مؤخرا ..

عوض — كانت بيوتنا فقيرة لكن أعمالنا فيها طيبة ولم
يكن بيوتنا أى معتقدات دنيوية وضيعة .. كنا جميعا نصبو
الى الغنى أو ايجاد الهوية أو الحصول على عمل يدر موردا
جديدا للحياة .. كانت الحاجة ساحة الآن يلتقط منها المارد
هذه الكوادر التى تمثل الأركان لاقامة نظام بأكمله ..

فاهد — صدقنى الحاجة هى الحاجة فى أى زمان ووقت ..
المسألة أصلا بيوت متماسكة .. ومازال فى بلادنا حتى الآن

بيوتا رغم الحاجة أشد صلابة .. المتهالك يتهالك ولو كان غنيا
والمتماسك يتماسك ولو كان بيته خالياً من بلغة خبز ..
عوض - أقسم لك أنى من بيت طيب .. لكنى فى لحظة
عقت أبى فغضب على .. وغضب الله على فارتسيت فى أحضان
هذا الحزب وأنا شاب صغير ..

ناهد - أنا ياسيدى الرفيق لا أعرف لى بيت .. فذهبت
الى الملاهى الليلية لأقيم بيتا من طوب وحجر ونوافذ و .. ذهبت
الى هذا الطريق وأنا حرة .. أتعاشر الرجال وأنا حرة ..
ثم جاءت الليلة التى خرجت فيها مع أحد الرجال .. وكان رفيقا
يحفظ تعاليم الحزب عن ظهر قلب .. منذ ذلك اليوم وأنا لست
حرة .. فاذهب الى الملهى بأوامر وكذلك أخرج منه ولست حرة
الآن أن أهجر هذا الطريق .. فعلى الآن أن أطيع وأهتف وأشرب
كأسا مع هذا وأتاء مع هذا .. كل ذلك ينصب فى كأس
واحد لمعرفة اتجاهات الناس وميولهم و .. من يومها وأنا معتقلة
.. صحيح لست فى سجن لكنى اعتقلت اعنقال الحياة ..
ذهبت الحرية عنى وكبلتنى قيود الجند الصدئة ..

عوض - صدقينى وأنا جالس أعمل سواء فى الليل أو
النهار أشعر بأنى أصنع النار لتنتهم البشر حولى ولا أعرف لهذا
العمل أية قيمة غير المعتقدات المهترئة والحساسة الجوفاء ..
الهواء تلوث والماء كذلك بأناملهم القدرة .. لدرجة أنى
لا أتصور أن هناك انسانا نظيفا فى هذه المدينة كلها ..

ناهده - أنا مومس لكنى أعرف أن الله حق وأنى قد
عصيته وأود وأنا فى شدة أعمالى السيئة أن أذهب اليه لينقذنى
من الشقاء الذى أنا فيه .. فى احدى المحاضرات قالت لنا
رفيقة تعتنى منصباً ربيعاً :

- أين الله - كنا فقراء فلم نره لينقذنا .. ماذا فعل الله
لنا .. لقد جاءتنا يد عباس فمسحت عنا الحاجة والفقير ..

وقام الرفيق وأمسكها من ذراعها يطاول تهدأتها وأخذ
يسوقها الى أحد المقاعد لتتعد وتكف عن صراخها وقال :

- اهتأى بالله .. ما يعتمل فى صدرك يعتمل فى صدر
الناس جميعاً .. لكننا نخاف الموت الرهيب ونتنظر الصاعقة
من الله عليهم .. أن أقدام الشعب ستدوسه فى يوم .. أعرف
أن أقدام الشعب حافية والأرض مملوءة بالشوك ..

ناهده وهى تهز رأسها يأساً وقنوطاً :

- لو كانت أقدام الشعب حافية لكان ذلك أمراً محتملاً ..
ياسيدى ان رؤوس الناس جميعاً خرج منها عقلها .. يعنى
رؤوس الناس أيضاً أصبحت حافية .. تجرد الناس من كل شئ
فأى شئ فى المدينة لم يعد خرباً .. وسار عوض الى أحد
الأركان وشد ستارة تحجب هذا الركن عن الغرفة وقال :
- هل قرين هذا المعبد وكانت سباجدة قديمة

للصلاة مفروشة بالأرض هذه حياتي الحقيقية بعد أن
رأيت الكفر بعيني وصنعته بيدي معهم . . الآن أحمل أفكارا
نبيلة فى صدرى ولكنى الى متى . . ياناهد اذهبى وافعلى
ما تريدن أنت حرة . . أنا من اليوم صورة وليفعلو بى
ما يريدون . .

قامت ناهد من قعدتها واتجهت نحو الباب وقالت :
— ليس من السهل تصبح الحرة ؟ ان كلمة منك لا تعنى
شيئا أو من غيرك . .

مازلنا نخاف والخوف أكبر مساحة فى بلادنا . . وأنت
لا تستطيع أن تحرر نفسك حتى تعتقد أنك تمنحنى الحرية . .
ان الموت المهان الذى يصنعوه أفضل من الحياة بهذه المهانة . .
. . وانصرفت . .

ومرت عدة أيام واعتقل عوض ابراهيم وناهد وتم اعدامهما
فى أحد الجبال التى تحتضن المدينة . . لقد كان عبده البر
وكيل الادارة فى هذا المبنى يتصنت عليهم وقدم شريط التسجيل
للحديث الذى دار بينهما الى الجهات المختصة . . انهم جميعا
يصعدون طريق الانحدار . .

ولما كانت ناهد تمر عليه فى الحافوت بين يوم وآخر
لتضرب له موعداً يلقاها فيه . . واليوم هو فى عدد
الأيام أربعة لم تعرج عليه . . فى اليوم الخامس
ذهب الى بيتها يطرق باب السور ولم يرد عليه أحد وتمشى حول

البيت وعاد مرة أخرى الى الباب .. فسمع وقع أقدام تقترب
وطل من الداخل وجه المرأة فتيبته ولم تكن ناهد فبادرها قائلاً :

— ناهد هنا ..

السيدة — من أنت ؟

— عبد اللطيف ..

— أهلاً بك .. تعال ..

وتردد قليلاً ودخل .. وتقدمته وسألها ثانية :

— ناهد بالداخل ..

المرأة — أنا وناهد واحد .. وتعثرت خطاه واندهش من

كلامها وقال :

— من أنت اذاً ..

المرأة — أدخل أولاً ..

وتركته وقعد بالصالة ودخلت احدى الغرف واندهش أكثر
عندما رآها تروح وتجيء فى الزرفة شبه عاريفه .. وكان يراها
من ضلقة الباب المفتوحة .. وتأكد له أن ناهد غير موجودة عندما
استنشق عطرا ينبعث عن غرفتها .. وجاءته ترتدى روبا مفتوح
الأزرار وترتدى شورتا وسوتيانا وبقية الجسد عار يفجر لهيب
الشهوة فى أى رجل .. وفتحت النافذة قبل أن تقعد مطلقة
زفرة تشكو حرارة الجو ولهت وهى تقترب منه تعبت فيها
رغبة وشورة جامحة .. ونظرت اليه فى تحد .. كانت امرأة
شديدة البياض ذات جلد أملس ناعم وعيونها السوداء ضيقة

خالية من الكحل .. وشفتها مبرمة حادة كانت تمضغ أطراف
كلامها أو تضغط عليه محاولة التحدث اليه باللهجة الكانية :

أهلا وسهلا .. جيت البيت كثير .. أنا صديقة ناهد ..
ازيك في البلد دى .. أجيب لك أكل دلوقتى .. تشرب شاي
.. أجيب لك ايه .. طيب كل مهلية ..

وقال لها متسائلا تساؤلا يهز ثنايا صدره :

— أين ناهد اذأ ..

المرأة — غائبة لمدة أسبوع .. أين ذهبت لا أعرف ..
انها تحبك فارسلتنى لك ..

عبد اللطيف — هل أنت تركية ..

المرأة — لا

عبد اللطيف — فارسية

المرأة — لا

عبد اللطيف — من أين ..

المرأة — من أمى ..

عبد اللطيف — ومن هى أمك ؟

المرأة — وماذا يهيك من أمى .. وأشعلت المرأة سيجارة

وألقت بعلبة الدخان عند قدمه فانحنى يلتقطها وقالت :

— اشعل سيجارة ..

عبد اللطيف — لا أَدْخَنُ .. واعتدل في جلسته ومسح وجهه بمسنديل وقال :

— من أين أتيت .. أهذا بيتك أم بيت فاهد .. من كانت فاهد ..

المرأة — أتيت من المدينة وهذا بيت المدينة .. وناهد ابنة المدينة .. كل شيء من مدينتي ..

عبد اللطيف — كل شيء عندك من المدينة ..
المرأة — وماذا تريد منى كامرأة .. أنا كل شيء عندي منبعه ومنتهاه المدينة .. أنا امرأة المدينة .. هكذا علموني .. المرأة ليس لها من سبيل غير أنها امرأة .. فهي ليست أم وليست إنسانة وليست مخلوقاً له كيان .. هي امرأة في الفراش .. مثل الحرية ابنة حرام .. مثل عباس قريب الله .. هكذا علمونا ..

عبد اللطيف — وصلت أن يكون قريب الله ..

المرأة — وله أسماء كالأسماء الحسنی ..

عبد اللطيف — ومن أنزلها ..

المرأة — هو عملها لنفسه ..

عبد اللطيف — ليتنى أعود الآن الى بلادي ..

المرأة — لن تستطيع ..

عبد اللطيف — أنا حر في أن أعود أو أبقي ..

المرأة - لن يتركوك تذهب .. انتهت مأموريتك معهم ..
أنت واحد حقير من كان .. وخائب وقاتل .. ألم تقتل من أهلك
فى هذه المدينة .. ان ناهد كانت خائنة وتأخرت عليك كثيرا ..
نقد ذهبت ..

وتلوى جسده من تحته وجثا على ركبتيه يعوى ويبكى ..
قائلا :

- أنا منتمى .. غلبان .. يحييا عباس .. وجرى على أربع
نحوها يحاول تقبيل قدميها .. ووقفت المرأة عند جسده الملتوى
وضربته بكف يدها على رأسه وذهبت عنه قائلة :

- أنت واحد حقير .. ماذا قدمت من الناس الأبرياء ..
لم ترحم أحدا من مدينتى أو مدينتك خاصة فى العامين الأولين
لقدومك .. هل شبت الآن ..

قعده على مؤخرته يهدى .. أنا حقير آه .. أنا .. فى عرضك
فى طولك ..

نظرت اليه المرأة شذرا :

- ليس بيدي شىء أنا واحدة ستدور عليها الدوائر ..
ان رصاصات الرأس فى ذلك الجبل ستكون لقاتلى فى يوم ..
أنا وأنت أعواد محترقة زرعوها ويحصدها فى وقت قد
رسموه بدقة ..

عبد اللطيف يسكت قليلا عن بكائه :

— وما الحل ياسيديتي ؟

المرأة — سيقولون عنك .. مناظلا بارا .. شهيد الحرية
مات من أجل القومية .. هكذا يعيش الأندال ويسمون أبطالاً
عندما يموتون أو يعدموان ..

عبد اللطيف — كنت وفيأ أميناً صادقاً معهم ..

المرأة — هذه قمة العمالة .. لم تكن إلا مرشداً .. عيين ..

وأخذ يلطم خديه ويضرب رأسه ويرتمى هنا وهناك والمرأة
تطارده في كل ركن .. وقام نحو الباب فوجده موصداً، وذهب
الى النافذة يفتح مصراعها فأمسكت به وبصقت في وجهه ودفعتة
نحو الأرض قائلة :

— من أفت ومن أبوك .. أريد أن أعرف بيئة المرتزقة

الأولى ..

عبد اللطيف — ومن أدرانى أنى كنت مرتزقة .. أنا أعمل

من أجل المال ..

المرأة — من أجل هذا تستحق الموت ..

عبد اللطيف — أنت مثلى .. قالها وكأنه يواجهها ويدافع

بها عن نفسه ..

المرأة — قدمت تقارير جوفاء لم أضرب بأحد فيها ..

عبد اللطيف — وكيف طال عمرك حتى الآن ..

المرأة — كنت أدفع بجسدى الفراغ الناقص عن عملى ..

وساد الصمت ولاذ عبد اللطيف بالمتعد وجلست قبالة
ومضى بعض الوقت ثم بادرتة قائلة :

— صارحنى من أفث ..

عبد اللطيف — كان أبى يعمل عسكرى بوليس .. لم نكن
تذوق اللحم الا كل أسبوع .. وكان اللحم مكون من الكرشة
تطبخ على خبيزة وطبق من الأرز عملته أمى من زبدة
نشحذها من خالتي ستيته الصاوية وهى سيدة غنية فى قريتى ..
وكانت أمى تسرق الثوم والبصل من أحد التجار يدعى محب
رمضان كان له مخزن قبالتنا .. ولما كان أبى يسألها من أين
انت بهذه المواد قامت تقول له .. كل واسكت .. وكنت أحقد
على كل أغنياء قريتى .. ولولا أن أمى كانت تمتهن مهنة الكب
لتسولنا طعامنا من كل بيوت القرية .. واقتربت المرأة منه
تنصت باهتمام بالغ قائلة :

— كب .. ايه كب ..

عبد اللطيف — كل رجل أو امرأة يعانى من آلام بردية فى
ظهره تقوم أدى بعلاجها بالكب ..

المرأة — كيف ..

عبد اللطيف — عبارة عن آداه من القوالح .. يعنى قولحة
لها قاعدة من العطين الناشف وتغمس هذه القولحة فى الكيروسين
وتشعل بعود ثقاب فتتوهج النار منها وتثبت على ظهر الرجل

ثم تعطى باناء مستطيل من الفخار فيسك هذا الاناء بشدة في
ظهر المريض فيعمل الهواء المضغوط مع قوة النار بخارا قويا
يمتنع الألم بعدها فنزع أمى هذا الاناء بصعوبة من فوق الألم
وتعمل هذه الكبة خمسة عشرة مرة في الليلة .. ليلة بعد أخرى
حتى ينتهى الألم ..

المرأة - علاج طبيعي لآلام البرد ..

عبد اللطيف - نعم .. نعم .. هل تريدان أنا مستعد
لفعله لك ..

المرأة - كم كانت تتقاضى راتب عن ذلك ..

عبد اللطيف - بتاو وجبنة وخبز طرى أحيانا وباذنجان
وخيار من الحقل .. مواد طعام ..

المرأة - وهل كانت زوجة الرجل الغنى توافق على أن تقوم
امرأة أخرى بعمل ذلك لزوجها ..

عبد اللطيف - ان لرجال القرية سطوة في بيوتهم .. هؤلاء
الرجال الأغنياء ..

لقد كانت أمى تفعل أكثر من ذلك لهؤلاء .. كانوا يظلمونها
لتدليكهم أحيانا .. يعنى مثل المساج البلدى .. وكان الدهان
المستعمل هو الزيت الدافىء ولما سألتها أبى مرة فى خنوع أن
تكف عن هذا العمل لأنه قريب من الزنا .. كانت تقول أنه ..

يل ريق .. وليس زنا .. وأحيانا يطلب منها بشدة الامتناع
عن هذه الأعمال الملتصقة بالرجل .. كانت تقول له أيضاً :

— وكيف أطعم هؤلاء .. كل واسكت .. جتك الغم ..
ومرة كانت أمى مريضة فذهب أبى ليقوم بعملية الكب
لرجل غنى يدعى عبد المنعم دردير فقال له :

— من قال لك أنى سأقبل العلاج منك .. أنت عسكري
وبس .. اطلع من القاعة حتى لا أقتلك عندما تشفى فج النور
ارسلها ..

المرأة — فج النور مين ..

عبد اللطيف — أمى اسسها .. فج النور ..

ابتسمت المرأة وقالت :

— من أجل هذا وقعت فى أول خطوة نك بالمدينة ..
عبد اللطيف — آه لو رأيتنى عندما تدفق المال بين يدى
.. ان أهلى لو جاءوا الى هنا لما عرفونى .. فعلت كل شىء
من أجل المال وعسلت كل الأعمال السيئة الموجودة فى شارع
الونيس .. كنت كالمقرد أو الشيطان الأسود فى ثوب رجل ..
كنت أريد أن أخدع العالم كله من أجل نفسى ..

وانتصف الليل ومازالت المرأة عارية وعبد اللطيف يعوى
بذكرياته وشعر بيرودة تجرى فى جسده ومرارة فى حلقه ..
والمرأة لا تشعر أنها امرأة ولا هو يشعر نحوها بذلك .. فهل

هي جلاذ جاء ليقنتله أو هي الموت نفسه .. وتهاياً له أنها قابضة
 أرواح وتساءل لماذا إذا جاءت عارية واندھش أنه برغم جمال
 المرأة وصدرها الذي يشبه صدر فتاة عذراء فانه لم يشعر
 نحوها بأى شىء البتة .. كان ينظر إليها فى خوف وكأنها رجل
 مخبرات يقوم بالتحقيق معه .. انها نهاية النساء بالنسبة
 لكل الرجال الغرباء الذين يقتربون من معاش خدمتهم .. هي
 النحلة التي تمتص رحيق الحياة من كل رجل خائن .. لقد
 اختاروها لهذا الدور لأنها امرأة وطنية جسدها يصعق الحياة فى
 حياة الرجال المزيفين .. واهتزت المرأة فجأة وترنحت وسقطت
 على الأرض .. انه لا يعرف لماذا سقطت ظن أنه من التعب
 أو أنها حالة اغماء بسيطة .. فتركها وفكر فى الهرب اذا أغمى
 عليها حقاً .. لكنه فى لحظة قال : ماذا بك .. ماذا بك ..
 وقالت سناء لا شىء .. أبداً .. ولم يكن أحد يدري فى العالم
 أنها فى منذ يومين تجرعت من زجاجة زربخ تناولتها من صيدلية
 وصاحبها فى غفلة ووضعتها فى حقيبتها وعندما عادت لبيتها ..
 تجرعت منها ما يكفى وزيادة .. وشعرت بدوار حقيقى يلهم بها
 وسقطت ذراعهاها هامدتان باردتان حول الجسد المرتضى على
 الأرض .. وفغر فاهها فجأة وتأوهت قائلة .. ليتها تكون النهاية
 .. وابتسمت ابتسامة باهتة ساخرة .. ألى تسجيل أقوم به
 للكانى .. وماذا قال أو سيقول مادام سيموت فى كل الأحوال
 أى دور أقوم به هؤلاء المجائين .. أنا فى حاجة لمن يسمعى
 أو يسجل لى .. يا عبد اللطيف اتنى أموت .. أموت ..

• لقد تناولت السم من يومين •• وجرى نحوها •• نعم •
 نعم ماذا تقولين •• ياربى •• لماذا •• أفضل لى أن أموت
 موتة واحدة •• أنا لا أحب الموت الذليل •• وأنا فى كل الأحوال
 كافرة ومهانة وذليلة وأحط ما فى الدنيا من بشر وحيوانات ••
 قل أنا حشرة حقيقية •• صدقتى أشعر براحة وأنا أقبل على
 الموت •• وقال عبد اللطيف •• تعال •• هيا أحملك الى طيب
 •• فقالت •• لا •• أى طيب •• لا لقد سرى كل شىء فى
 جسدى ورأسى لا فائدة •• أفضل أن أموت موتة هادئة ••
 دعنى واسمعى وارقبنى وأدعولى •• واستلقت تماما على ظهرها
 دون أدنى حركة وكأنها تسمرت بالأرض •• وثبتت عينيها فى
 السقف نحو نقطة واحدة فيه وكأنها تحاول أن تتفحص شىئا
 وكانت العين غير قادرة على الحركة •• ولم تنبس بكلمة وكان
 صدرها يعلو وينخفض وكأنها تلهث •• وخرجت كلمات من
 فمها مبعثرة •• تشرح وتبرر كيف سقطت وارتمت فى أحضان
 المخابرات وكأنها تعترف بأخطائها وتطلب المغفرة •• وكان يحاول
 التقاط بعض الكلمات •• لقد تعذبت كثيرا •• وأخلصت وكنت
 سيئة فى كل شىء •• كنت دائما نادمة غير راضية عن ما أفعله
 •• كنت جبانة مسوقة مهدمة ضائعة •• وانفجر النجيب الضعيف
 الواهن •• كانت تشعر أن الجدران تنهار حولها والسقف ينزل
 فوقها كالجبل ولم تشعر بشىء غير العالم الذى ينهار عليها
 ويخنقها والأرض تنفلق من تحتها •• وهوت وكأن انفجاراً كئيباً
 تحترق تفجرت فى رأسها •• وقرأ قص النور فى اللبنة الكهربائية

التي تضىء البيت وانشق الظلام فى الحيطان حولهما .. وفجأة
تراكت رغاوى خرجت من فمها وتكومت على ذقنها ونزلت على
جيدها .. ولم تشعر المرأة بشيء وفى لحظة تمرغت الرأس يمينا
ويسرة وسقطت رأسها بقوة وشهقت ..

وقام يستغيث بالله يقب فى رأسها ويمسك بيدها ..
انه لم يرى أحدا مات من قبل .. هل ماتت .. انها لا حراك
فيها .. ياسناء .. سناء .. وضم الروب فوق جسدها ودخل
غرفة وحمل شرفاً وغطاها وقعد جانبها يبكى .. يبكيها ..
ويبكي نفسه .. يبكى الناس جميعاً .. ودق الهاتف فازداد
خوفه ولم يرد .. وقام يتجول فى البيت يفكر فى الخروج منه
.. لكن الى أين والساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ..
ودق الهاتف ثانية ورد عليه قائلاً :

— هالو ..

— أبو على ..

— مين أهو على ..

— من أنت .. قالها بغلظه ..

ارتبك عبد اللطيف وقال — عبد .. عبد اللطيف ..

— رد يا بن الج .. أين سناء ..

— سناء .. سنا وسقطت السماعة من يده ..

وتركها .. ثم عدلها .. فدق الهاتف ثالثة ..

- هالو ..
- انتظرنا ..
- من أتم ؟
- اخواتك ..
- ماذا تريدون مني ؟
- ستذهب معنا نحجز لك شقة ..
- شقة ..
- لا أريد شقة ..
- يعنى .. لا .. لا أبدا .. هو ..
- لا تحاول أن تهرب من سناء أو أو .. لماذا لا ترد هي ..
- انها .. انها ..
- ماذا ؟
- لا أبدا .. نائمة ..
- انتظرنا .. لماذا لم توقظها ؟
- انها نائمة .. وترفض أن ترد ..
- والله لندرعها الدم ..
- بس .. بس أصل كان يريد أن يقول أنها ماتت .. ولكنه آثر أن يتلعثم ولا يقول شيئاً ..
- وتهياً له أن الاخوان كثيرون حول البيت وفتح النافذة

قليلا ليراهم •• ليرى الموت حياً أمامه •• فلم يجد أى اخوان ••
 لكنه تهيأ له أنه يرى أشباحاً تلعب حول البيت •• وكانت الظلمة
 شديدة حول السور •• وكان الأفق البعيد يلوح بأضواء باهتة
 مخنوقة •• وسمع صغيراً حاداً •• انه صفير المصانع الخربة
 القديمة حول المدينة •• وارتعد من الخوف الذى يحيط به
 وشعر بأن عقله فى رأسه قد خرمه مسمار أو دخل فيه شققة من
 حجر •• كانت الأرض رطبة •• وارتجفت روحه فوق شفثيه
 وشيئاً بعد شىء من الخوف والهلع أمسك رأسه بيده وفضل
 أن يرتجف تحت غطاء بجانب المرأة المسكينة •• وكأن شيئاً
 راح يداعب روحه •• مثل شىء من عالم آخر يتوق اليه
 •• وراح يعلق نفسه فى هذا الذى يشده عله يرحمه من الخوف
 ومن الاخوان القادمين •• ولف الغطاء فوقه •• كان شيئاً
 كالملايا قد ألم به •• وقال ياربى أسلمت نفسى اليك •• وراح
 فى غيبوبة •• يتتهه بكلمات لا معنى لها •• وتعطلت لغة الكلام
 المحموم لحظة •• ان مفتاحاً يدور بالباب ودخل ثلاثة رجال
 البيت يضرب كل منهم الجسدين بقدميه •• وكشفوا الغطاء عنهما
 فاذا بعبد اللطيف يتلوى وسناء لا حراك فيها •• وضرب أحدهما
 عبد اللطيف على رأسه وفى لحظة وقف بين يديه •• ورفع الآخر
 ساقها بيديه لأعلى ليركب فوقها •• فاذا بالساقين باردتين
 جامدتين لا حراك فيهما •• وعوت صفافير المصانع الخربة ثانية
 فسقطت الساقان من بين يديه •• كانت عينها ترنو الى لاشىء ••

وهروا نحو عبد اللطيف يضربه بقسوة على رأسه ووجهه قائلاً:

— قتلتها يا ابن الوبس

— لا .. لا والله .. هي التي ماتت ..

.. وضربه آخر .. من نفسها .. ماتت لوحدها ..
وضربه الثالث .. لما إذا قتلتها ياكافى يا ابن الشر
وصرخ عبد اللطيف بتوسل ..
— أنا لم أقتلها انها ماتت وحدها ..

أحدهما — وحياه أمك .. هاذ .. هانحط فيك ..

الدنيا .. وحاول النهوض لكن الرجال الثلاثة نزلوا عليه بالضرب
المبرح على رأسه ففضل أن يكون جاثياً على ركبتيه كخير موقف
للدفاع عن دماغه وعينييه الذي كان يطق منها الشرر .. وفجأة
نورمت عيناه واندفع الدم من نقطة في رأسه من أثر حذاء أحدهم
.. ولما انهارت مقاومته ارتمى على بطنه ووضع كفى يديه على
رأسه يتأوه ويجأر .. آه .. معلش .. ارحسونى فى عرضكم
.. لست القاتل .. وفى لحظات دخلوا الغرف واحدا بعد الآخر
وألقوا نظرة على الحديدية وأحكم أحدهم قفل المصاريع والأبواب
وآخر ضغط على عينيها بأصابعه حتى ارتخت أجفانها ولما زعقوا
فيه بالنهوض لم يستطع أن يقف مرة واحدة لقد وقع مرتين الى
أن وقف وهو مقوس الظهر محاولاً اخفاء وجهه بكفيه وحرصاً
منه على مقاومة ضربة فى وجهه ورأسه وعينييه التى انتفخت من
قوة الطبل عليها .. وتحدث أحدهم فى الهاتف .. ثم قعدوا

قرب الباب الداخلى يتناولون طعاما أحضره أحدهم من المطبخ
وضحك الثالث وقال يسخر من الكافى •

— ستشرب فى الفندق كثيراً من العرق ••
ورد عليه الثالث :

— لقد أكل كثيراً من السمك وهذا يكفيه حتى يخنقل
بعيد ميلاده ••

ومر بعض الوقت وعبد اللطيف يضع كفى يديه على رأسه
•• كل شىء فيه يرتعد ويتأوه ودماغه تثق بأنه لن يرى الحياة
مرة أخرى •• وأن أمه وأباه وزوجته وطفلته والبيت الذى شيده
بكفاحه وعرقه كل هذا لن يراه •• ووجد نفسه فى قفص
حديدى مقفل غطى بقماش أسود ثقيل •• وكاد يصرخ كى يسمعه
منقذ •• لكنه لا يقدر على ذلك فلا أحد يسمع الموتى •• وتذكر
أنه كان سبباً فى قتل الآخرين وأن ذلك بعض من عمله ••
وأدرك أنه كان يقوم بعمل يؤدى الى اهلاك الآخرين •• لقد
كان غيباً وسفاحاً وقذراً •• عرف الآن ذلك ووعيه تماماً ••
كان يؤدى عمله دون أن يدرك نتائجه •• وسمع صوت عربة ••
ودخل أحدهم وحمل سناء على كتفيه ومشى بها خطوات ولحقه
رجلان غريبان يحملان نقالة مما يعنى أنهما رجال مركبة الحائوتى
•• وسمع وإبلا من كلمات التفريع والقذف للمتوفية من الرجال
الثلاثة •• وفادوه بقسوة أن يتبع طابور النقالة واتخذ مكانه
وراء نعش المتوفيه وقلبه ينزف حزناً وألماً حتى أن دماغه عجزت

عن تفسير ما يجرى .. لكن الذى تأكد منه تماماً أنه ذاهب الى
مصيره وأن أوقاتاً شديدة السواد سوف يقضيها وأخرى من
العذاب سوف يمر بها قبل أن يموت .

وأدخلوه عربة مرسيديس بيضاء ورفسوه بأقدامهم واحداً بعد
الآخر ليقعد فى الخلف وأصبح الرجال أربعة بقائد العربة ..
وجلس أحدهم فى الأمام واثنان معه هو أوسطهم .. وفى لحظة
تقدمت المركبة تاركة رجال عربة الحانون يجهزون عربتهم
للانطلاق الى أحد مدافن المدينة .. ولما كانت الحافلة الصغيرة
تشرف على الدخول فى خارج المدينة ربطوا عينيه بعصابة من
قماش أسود وزعقوا فيه ليقعد تحت فى قلب السيارة .. وانطلقت
المركبة خارج المدينة تمرق عجالاتها فى الأرض كما يمرق المنشار
فى الخشب .. ثم دخلت فى الخلاء .. تركوا المدينة خالية فى
وقت كانت المدن المجاورة لهذه البلاد فيها الناس يذهبون لصلاة
الفجر .. كان قليل من الناس فى هذه المدينة يذهبون الى
الصلاة .. واذا ذهبوا فانهم يلتصقون بالجدران ويهرعون من
السلطان .. وتم دفن سناء فى مقابر الشهداء ودونت فى سجل
الشرفاء .. ودوت الأناشيد فى هذا الصباح مثل كل يوم دوت
بالأناشيد الوطنية للعدالة والحرية وبالثناء للمهيب بطول العمر ..
كان كل أهل المدينة يسبحون كل يوم فى العلنى بالحمد
والشكر تحت أقدام أصغر رجاله .. اذا كانوا يريدون أن يكون
لهم غد .. وهذا هو المستقبل ..

كل شيء كان ساكناً الا من الظلام بعد أن فكوا العصابة
التي ربطت عينيه .. كانت الغرفات صغيرة والأسقف خربة
والحيطان ملطخة بالدماء وصراخ الأطفال لا ينقطع وبعض النساء
تولول وصوت رجال يتأوهون وعلى حصيرة قدرة من الخوص
رموا بعبد اللطيف فى صومعة ووجد رجالا يرقد يخفى وجهه
ولما تعرف عليه وهو راقد بعد أن انصرفوا ..

قال الرجل :

— من أنت ؟

— عبد اللطيف .. واحد من الخونة ..

الرجل — من كان ..

عبد اللطيف — نعم ..

الرجل — هل رفضت التعاون معهم .. أم كنت مرشداً ..

عبد اللطيف — كنت مرشداً ..

الرجل — وهل ظلمت أحداً ؟

عبد اللطيف — كنت مخلصاً ..

الرجل — يعنى تستحق ..

عبد اللطيف — لم أكن أعرف ..

الرجل — والآن هل عرفت ..

عبد اللطيف — وما الفائدة ..

الرجل — أنا سوري لم أفعل شيء كنت أعير الحدود لكى

أعمل .. أمسكوا بى وأنا فى الطريق الى أقرب مدينة ..

واتهمونى بالجاسوسية .. مضى على ثلاثة أيام ذقت فيها أشد

ألوان العذاب لكى أعترف .. والله أنا بدوى ولا أعرف أى شىء
عما يتهمونى به .. وجئت لأعمل ..

عبد اللطيف - ألم تظلم أبداً ..
الرجل - لم أتعاون مع أحد فى حياتى ..
عبد اللطيف - اذاً ستخرج من هنا .. وسكت برهة
وقال له :

- ما هو اتجاهك ؟
الرجل - يعنى ايه ..

عبد اللطيف - ألا تفهم الاتجاه .. كل انسان له اتجاه ..
الرجل - أول مرة أعرف هذا .. اذا كان ولا بد ..
اتجاهى يوم ولدتنى أمى كان الاتجاه المعاكس لعورتها .. وهذا
يعنى أن يولد الانسان مؤدباً وخلوقاً ويجب أن يكون كذلك
حتى يموت ..

عبد اللطيف - الاتجاه يعنى هنا شىء آخر معاكس لما
تقول يارجل .. اسمك ايه ..
الرجل - حلى غلايينى ..
عبد اللطيف - يعنى ايه غلايينى ..
الرجل - لا أعرف ..

ومرت ثلاثة أيام لم يذهب عبد اللطيف فيها الى الحانوت
.. وبحث سلامة عنه فى المقاهى والفنادق وعند معارفه فلم

يجده .. وكان كثير من الناس يضرب بيده على صدره قائلاً :

يا عين أمه .. يالهوى عليه .. خذوه .. وهاتف ريم
فى الهاتف وأخبرها فأكدت له بأنهم أخذوه .. هكذا جرت
العادة عندما يغيب أحد فى هذه المدينة .. الاخوان أخذوه ..
لن يعود ياسلامة .. لا تأتى لزيارتى الآن .. أقفل محبس المياه
وأقفل الكهرباء عن المحل وأقفل نافذته .. أقفل المحل واتهى
الآن .. الآن .. الق المفتاح فى النهر .. خذ كل النقود التى
لديك .. اخفى من المدينة .. اذهب من نزلك .. أقول لك ..
اذهب الى السيدة العجوز عند الجسر .. انتظرنى هناك لا تغادر
بيتها حتى آتى اليك .. سرحل معاً .. أوصف لى مكانها
ثانية .. ووصف لها المكان .. واتتهت المكالمة .. وضرب كل
من يعرف عبد اللطيف على رأسه وصدره ودوى الرعب فى
رأس سلامة وفى كل شوارع المدينة .. كان الناس يهرولون
والرعب يعربد من تحتهم .. المال أقحمهم فى طريق كله هلع
ومع ذلك فهم يحبون الشوك والمخاطر .. والمال لذيذ مهما
كان الطريق اليه .. هكذا يتفوه أولاد كان فى المدينة .. انهم
يخفون من أجله لأنهم جميعاً من حفاة كان .. وقال سلامة لنفسه
وكأنه يكابرها ويعاندها عشت فى ملاجئ تحت الأرض هزمت
الصبر فى الجيش أكلنا الضفادع والفرائن والقنفاذ .. لقد مت
وزملائى قبل الموت الأكبر خرجت من الجيش أشلاء متناثرة ..
نفس تعب خربة .. فكيف أكون ضعيفاً أمام هؤلاء هل وقعت

فى برائن الافك .. هل أخذنا حكمدار هذه البلدة جسر يعبر
 عليه فى أمان .. هل أولاد كان فى هذه المدينة جسر يعبر عليه
 نظام بأكمله .. غير النظام ويعبر معهم أولاد كان الى الحياة ..
 أقام أولاد كان بيوتهم عند كل حافة من هذا الجسر .. وهناك
 أقام الحكمدار متاريسه وتهياً للنظام القوة والبطش ومن هنا
 كانت كراهية أهل البلدة لكل أولاد كان فى المدينة انهم يعتبرونهم
 أعوان الحكمدار .. احتضنهم الحكمدار ليستمر فى عبور
 جسوره ولم يظلم فى عملية العبور غير أهل المدينة .. وتساعل
 والشوارع الواسعة تبتلعه فيخترق واحدا بعد الآخر .. هل
 أهمل أهل المدينة فى شىء حتى يكون هذا جزاءهم .. ان
 البيوت الضاوية من ذكر الله يسلط الله عليها حاكما ظالماً ..
 فتهاوت جدرانهم وتهاكت أسقفهم وعاد أبناؤهم جواسيسا عليهم
 والحيطان الصماء متهمه بالتصنت .. هل يوجد فى أى مدينة
 فى العالم ناس يخافون من حجارة وأثاث منازلهم اعتقاداً أن هذا
 الجساد له عيون وآذان ستنقل كل كلمة الى الحكمدار .. هكذا
 بلغ حجم الخوف فى هذه المدينة وبالتالي فإن أخط انسانية
 على وجه الأرض صنعها الحكمدار فى هذه المدينة .. ومن
 هنا شعر سلامة بأنه لا شىء .. وأنه سيلاقى حتفه لا محالة
 وأن الدور عليه .. فماذا يفعل وهو فى النزول الأخير من الحياة
 .. هل يستطيع النجاة .. وقبل أن ينتصف الليل بقليل عاد الى
 نزله .. وطرق أحد العاملين بابه وسلمه رسالة قائلاً :

— رجل كافي ليس نزيلا بالفندق جاء وسأل عنك وترك لك هذه ..

وفض الورقة وقراها ..

عزيزى — سلامة

علمت أن لك محلا وأنا ابن شحات غريب زلاييه من مجيرية البلد اللي جنب بلادكم .. عشمى أشتغل معاك وحياة أبوك عمى الحاج .. ياسلامة ياغالى .. يابن الرجل الطيب .. سوف أمر عليك صباح الغد قبل أن تذهب الى المحل .. محسوب شحات زلاييه ..

وطواها فى جيبه وشعر أنه سيكون مقصراً أمام هذا الرجل .. ولكنه أراح نفسه قائلًا .. من مجيرية من براشيم من أبويًا .. ربنا مع الجميع .. وقرر أن يغادر الفندق صباحاً ولما استيقظ فضل أن يقضى وقتاً فى استراحة النزل .. تناول فطوره واحتس شايًا وجلس رجل بجانبه من كان بادره قائلًا : — هل تنزل هنا ؟

الرجل — نعم ..

سلامة — ماذا تعمل ؟

الرجل — فى ملهى ..

سلامة — هل تقدم للزبائن ؟

الرجل — ادارة النساء فيه .. وجلب نساء جدد ..

سلامة - وهل تجيد هذا العمل ؟

الرجل - ان زوجتى واحدة من هؤلاء النسوة ..

سلامة - كيف .. كيف تقبل هذا على نفسك ..

الرجل - عندما أعود الى مدينتى سأطلقها .. لقد ذهبت

الى كان وأتيت بها خصيصاً لجلب المال .. ان هذه هى الطريقة

الوحيدة لجلب المال الكثير ..

سلامة - هذا حرام يا أخى ..

الرجل - لا يوجد حرام فى هذه المدينة .. عملت بشرف

قبل ذلك فى غربتى، وكان المال قليلاً لم أستطع أن أفعل

به شيئاً فى بلدى ..

سلامة - هذا مال حرام ..

الرجل - لم يعد هناك أحد يستطيع أن يفرق بين الحلال

والحرام .. لقد عجزت عن ذلك فقررت أن أعمل فى طرق

محدد غير مبال .. على أن أفعل كل شىء تدور عليه الحياة ..

سلامة - لا أعرف أى شىء حدث للأبناء كان ..

الرجل - فى هذه المدينة أولاد كان من بصقتهم مدينتى

.. فمنهم من يجمع حياته بشرف وآخرون بغير شرف .. المحصلة

فى النهاية مال ليقسموا به حياة مادية بأى شكل .. ان الذين

خاضوا الحرب واعتقدوا أنهم يقومون بأعمال مجيدة من أجل

المدن .. لما ذهبوا الى هذا العالم وجدوه يحتقرهم ويضكل

بهم .. فما كان من أولاد كان الا أن يأتوا بأعمال منافيه لأعمالهم
السابقة .

وفجأة مضى الرجل الى عمله وترك سلامة حائراً يتردى
فى أفكاره ولم يأتته محسوب زلاية صاحب الرسالة حتى وقته
هذا .. وطلع الى غرفته يعد حقيسته ويجمع فيها ملبسه
وحاجياته .. ولما جاء وقت الظهر دفع حسابه لصاحب النزل
وبلغته الشوارع والأزقة ولم يكن يعرف الى أين ..

ولما كانت هند تعبر شارعاً واسعاً وهى رائحة الى الجامع
ثم تمش فى زقاق ضيق تسير فيه قليلاً حتى تجد بناية عتيقة
تعلوها مأذنة بيضاء .. هذا الجامع الصغير بناه أحد الأولياء
الصالحين فى عهد أحد الخلفاء وفى ركن صغير من هذا البناء
الأثرى خصص للنساء .. كانت هند تؤدى صلاتها مع بعض
السيدات الطاعنات فى العمر .. وكانت العيون التى ترقب المصلين
كافة وخاصة الطاعنات منهن يقولون فى تقاريرهم .. لماذا تذهب
هؤلاء النسوة لتصلى .. وهل أخذن من الحياة شيئاً .. ان
الفقر يأكل منهن .. فهل يذهبن لطلب الحياة .. لماذا لا يحضرن
الى المسئول ليسنحهم بعض الحياة .. ولما سألوا احدهن مرة
.. لماذا تذهب لتصلى كل وقت أجابت فى تحفظ .. أنه عملى
الوحيد الذى تبقى لى فى هذه الحياة .. وسألوها هل تحب
الحكماء قالت وهى تكذب .. وهل لنا غيره .. ثم استغفرت

الله .. وقالت وهى تبتهل اليه .. اغفر لى فأنا فعلت ذلك حتى لا يجد جسوده فرصة لاهاتنى .. فاغفر لى وانتقم منه ..

أما هند ابنة الحزب - فلم تذهب الى عملها وآلقت به خلف ظهرها .. انتضعت عن كل نشاط .. تحجبت .. ألم تجد شيئاً عندنا فذهبت لما هو أفضل .. طبعاً لا .. انها فى رأيهم منسقة خائنة ولا بد من تأديبها .. ونصحوها بالعودة فلم تعد .. وأمرها بفك الحجاب فلم تفعل .. وطلبوا منها الذهاب الى العمل فلم تذهب .. وسألت ربها أن يشفيها فشفاهها وأن يعفوا عنها فعفى .. وأن يدخل الايمان الى قلبها وحدث .. فبصقت موتهم وازدرته .. كانت تخرج فى عز الشتاء يدثرها معطفها وغطاء رأسها يزيناها .. كان صوتها دافئاً يخرج من ثنايا صدره قوياً .. ينبثق منها سلوك جديد انسانى .. هى انسانية الايمان بعد الزلّة .. ثم جاء يوم خرج فيها بيتها كله للصلاة معاً .. وهذا فى رأى الزبانية مظاهرة ضد النظام .. هند وأمها والطفلة وكلهن محجبات هذا سلوك لا يطاق وليضرب على هذا الجمع الغريب الشاذ بيد من حديد .. وفجأة فى يوم دخل أحد رجال الأمن بيتها يرمى بكل شىء تقع عليه عيناه بالأرض يشخط ويبصق ويلعن .. ووقف الثلاثة صفاً واحداً ينظرون اليه فى تحد .. ووجد كتاب الله فى غرفتها مفتوحاً فقفله وأخذه فى يده وذهب الى رئيسه يضع الكتاب أمامه قائلاً .. وجدت هذا فى بيتها مفتوحاً فهز الرئيس كتفيه وقال :

لقد زادت الأمور عن حدها .. خذوها مع الكافي اسمه ..
اسمه .. عبد اللطيف .. خذوها لترى ما سيحدث له بعدها
نلقى بها وكفى ..

فهز رجل الأمن رأسه وقال ::

حاضر يا أفندم .. حاضر ..

ولم تبال هند أو أمها أو حتى الصغيرة لقد دخل الايمان
في قلوبهم .. وراحت هند تحدث أمها عن حلاوة الايمان ..
وكافت تضم ابنتها نورا في أحضانها كل مساء وتحكى لها حكايات
المصغار وتحفظها آيات الكتاب ولما بلغت نورا السنة النهائية
بالتعليم الأساسى أقعدوها فى البيت خوفاً من تدرجها فى التعليم
بعد ذلك .. لقد بدأت تخطو الخطوات الأولى مع الأهوية وعلى
الجانب الآخر يبدأ الخطر من رجال الكشافة والجوالة والطلائع
والتدريب والمعسكرات والدوائر القذرة التى صنعها الحكمدار
فى المدارس والجامعات وغيرها .. كان الجمع وهو يسير الى
المسجد تسوقه مشاعر دافئة قوية .. جمع عزيز تلهبه تشوة
الايمان .. كان الحب والنور ينبثق من وجوههم .. وعيونهم
تبرق شعاعاً صافياً لامعاً .. وأقدامهم تلامس الأرض فى دعة
ورقة .. وتمنى هذا الجمع فى كل وقت أن يعيش فى مدينة
خالية من الحكمدار والسفلة .. وأن تعيش كل منهن باسم
آخر .. وأن يغير رجل البيت عمله ليكون فى نفس المدينة ..
وفكر حكمدار الحى أن يأخذ الثلاثة ليشهدوا كل ما سيجرى

لعبد اللطيف .. ولما أبلغ الأمر الى الرئيس المناصل بحال هذه
للأسرة .. كانت تعليماته أن تأخذ ابنة الحزب أولاً .. وكانت
هند تضحك من كل قلبها، وهي تصغى الى حديث طفلتها نورا لهم
قبل النوم .. وكلما اعتمى جنبها بالايضان ازدادت حباً
ووداً نحو نورا .. وعرفت نورا معنى أمها الحبيبة ومقدار
عاطفتها نحوها مسا عوضها حرمانها فى الأيام الفاتئة .. كانت
هند تشعر بأنها مديدة القامة وأن خطاها التى كانت متردية
أصبحت ثابتة .. ان شيئاً من الصبا قد آل اليها .. انها الآن
تمسك بتلابيب نفسها وكيانها .. يقظة بالعالم واعية به ..
تدخل عالم النور واحتضنته هى، وأسرتها .. وفى ليلة من الليالى
سألت أمها قائلة :

— هل سنظل نسعد بحياتنا هذه يا أمى ؟

الأم — نعم .. وانعقد لسان الأم لحظة .. لماذا لا نظل ؟
هند — علينا أن نسك بأمرنا .. أتمنى أن يتركوا فهناً
بحرية العبادة ..

الأم وهى تمط شفقتها :

— وهل نضيرهم فى شىء ..

هند — أنا أعرفهم يا أمى .. ان هذه موجة من موجات
التطرف فى نظرهم .. ويكون أمراً مرعباً لو انتقلت عادة ذهابنا
الى الجامع الى بيت آخر ..

الأم - أعرف .. ان خليطاً من الحزن والخوف يحذرني
من الغد .. فحن في مدينة جعلوها مزبلة للتاريخ الانساني ..
حتى العبادة قيدها بين القضبان .. ان أنفاسنا جميعاً محسوبة
.. ليس لنا حيلة في الظلام المحيق حولنا غير أن ندعو الله أن
يعمهم عنا أو ينقلنا بقدرته الى مدينة أخرى في العالم
نعيش فيها ..

هند - هكذا يحط الظلام فوق رؤوس الناس .. ولولا
كلمة يارب ما هبط التوم رأس انسان في مدينة سوداء ..
الأم - كل شيء حولنا هو الهلاك .. لكننا لا نذهب الى
الهلاك .. سوف أذهب الى كل صلاة حتى ولو صوبوا
على رأسي مدرعة .. ما أجمل أن أموت وأنا حرة .. ومرت
الأيام والأسرة التي جباها الله بالايمان مستمرة في عبادتها ..
ولما يأت للأب من الجنوب يذهب مع أهل بيته الى المسجد ..
وفي يوم ذهبت نورا مع جدتها الى سوق المدينة .. وطرق
أحد الجنود يرتدى ملابس مدنية باب هند وأبلغها باستدعاء
الحكمدار لها .. استأذنته ساعة لترتدي ملابسها .. لم تخف
وآزرها ايمانها وكتبت رسالة لأمها تخبرها بالأمر .. وقرأت
بعض آيات الكتاب .. والجندي ينتظر في صالة البيت في
قلق .. وزعق مرة قائلاً : يا شيخة هند كفاية .. كفاية يا ..
يا .. وقالت في خشوع .. أسلمت وجهي اليك .. أنت وكيلي
وحسبي .. لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ..

صدق الله العظيم .. وخرجت من غرفتها ومشت نحو الباب
وألت عليه نظرة غضب وزعقت فيه قائلة .. أخرج أمامي ..
ابتعد عنى قليلا .. انى سأتبعك .. وتعجب الجندى لشجاعتها
وأمرها له .. وهز رأسه وهو يحرك وجهه يمنة ويسرة كأنه
يتوعدا ومط شفقيه وقال :

— هذا يومك يا فاجرة ..

ولم تخف، وسارت خلفه فى تحد وكأن شيئا قد نزل
طبيعيا وقويا فى قلبها ورأسها الى أبعد حدود يسكن تخيلها ..
هادئة رزينة .. وكان الحجاب كالتاج فوق رأسها .. وبصقت
على الأرض كأنها تبصق عليهم جميعا وقالت بصوت مسروع :
— أنا لا أخاف الا الله .. سأواجههم بالحقيقة وسأبصق
فى وجههم جميعا .. سأخلع حدائى، وأضرب به على رؤوسهم
الحافية ..

وسارت وتلفتت حولها مرات لترى الناس وقد هاموا ..
يظنون أنهم يسعون فى الحياة .. لكنهم يشنون للملء بطونهم
وكساء أجسادهم واقامة لهم .. انهم لا يسعون لعزتهم وحریتهم
وكرامتهم .. يعوضون فى أعماق هذه الدنيا لنيل مطالبها
المادية .. هكذا تصورت الناس .. وشعرت بهم .. كأن
مساً من الجنون ألم بها .. امرأة تعرف أنها تذهب الى أول
الجحيم، وتفكر فى الناس والحرية .. وفجأة انقلب المخبر
الحقير الى الخلف .. وزعق قائلاً :

— تعال .. أنظري هناك .. العربية السوداء هذه ..
وتوقفت مشدوهة واتجهت بناظريها الى العربية السوداء ..
مخيفة لكنها لامعة طويلة كالقاطرة .. وكان أربعة من المخبرين
فى ملابسهم المدنية يتقدمون نحوها فى ثبات وعملوا حولها
شبه دائرة .. واقترب نحوها أحدهم وقال فى غلظة :

— أنت هند ..

— نعم ..

وفى لحظة هوت يده على وجهها فكادت تقع على الأرض
ولما انعذت كان همها أن تعدل الحجاب على رأسها
ووجهها .. ولما وقفت قالت :

— آه يا به .. آه ..

وفارق الدمع مقلتيها .. ولطمها مرة أخرى فتطاير الشرر
من عينيها ووقفت هذه المرة وانكفأ عليها ونزع الحجاب من
رأسها بصعوبة وهى تقاومه .. وتجمع الناس وألقى بالغطاء
الذى يسترها عند أقدامهم فحاول بعضهم جمعه وأمسكه
أحدهم فى يده وأطلق بعض المارة آهات .. ياللمسكينة ..
من هذا .. ماذا يفعل .. ورد أحدهم وهو يمرق بينهم لا ..
لا تتكلموا الصمت .. انهم .. المخبرات المخبرات .. وقال
أحدهم ومن أدراك فردت أصوات واهنة من هنا وهناك ..
طالما يلقون بالحجاب وهذه امرأة محتشمة .. انه كمن يسوقها
.. يضرب فى غلظة يلقى بها هنا وهناك .. إذا هذا رجل

مخابرات .. وحاولت الوقوف لكنها وقعت .. أمسكت الأرض
وحفرت بأظافرها فى طين الشارع المشبع بمياه المجارى القذرة
وكادت تلقى فى وجه المخبر بقطعة منه لكنها سرعان ما أدركت
تأنيج هذه الفكرة .. وتوسلت الى الناس حولها .. تفرست
فى وجوههم .. هل من منقذ .. فوجدتهم أشد خوفاً وهلعاً
منها .. ان معظمهم من كان وهند وباكستان وبنجلاد .. ضعفاء
هذا العالم الصغير المنكوب .. كيف يأتى العون من عدم ..
وقامت وصرخت :

— ماذا فعلت .. ماذا فعلت ..

وقذف بالحجاب فى وجهها وقال :

— هذا يكفى لذبحك .. تركناك عاماً تذهبن الى الجامع

.. ماذا تفعلين هناك .. تذهين ومعك مظاهرة ..

هند — هذا الجامع هو بيت الله ..

المخبر — بيت الرجعية .. لمن تقيمون الصلاة .. من

يطعمكم غير .. من جعل لكم وظائف وتجارة وبيوت غير

الحكمدار .. هل تستطيعين الحصول على شىء بعد صلاتك ..

يا فاجرة .. تعال .. وشدها .. يجرها الى العربية

.. ودفعها الى داخلها .. وانكفأت على المقعد الخلفى تبكى

وتتشنج وتضرب بيدها الباب الصغير .. وضربها الذى قعد

بجانباها على رأسها ولعنها .. واندفعت العربية تجوب الشوارع ..

كانوا ثلاثة وسائقها .. وتسابقوا جميعاً في السخرية منها ..
لعنوها وبصقوا في وجهها .. مزقوا الحجاب في حجرها
وفكشوا شعرها .. واستدار الراكب الى اليسار ليغيب تماماً
عن عيون المدينة .. وراحت هند في غيبوبة .. ولما أفاقت
جالت بناظرها حوالها .. لم تر بنايات أو أى أثر للعمار ..
لكنها وجدت خياماً وأبنية حالكة متناثرة تحيط بها أسوار
من السلك والشوك وشجر السنط .. والكلاب تنتشر ..
تجربى وتلعب وتعوى وبعض الجند يحملون بنادقهم فى بذتهم
العسكرية الصفراء .. وربطوا عينيها بعصابة من قماش ثقيل
وقالوا .. لها انزلى الى تحت .. ورموا بها فى قلب العربة حتى
كاد وجهها يلامس حذاءهم .. ثم دخلت المركبة فى طريق تحيط
به غابة كثيفة من الأشجار .. وسألت النهوض فوضع أحدهم
حذاءه على رقبته ومضت العربة قليلاً ثم توقفت فى مواجهة
مبانٍ أكثر كالأحجار .. وتقدم أمد الجنود وفتح الباب الخلفى
ونزل أحدهم وبعده ألقوا بهند على الأرض ومسكها أحدهم
من ذراعها وأوقفها قائلاً :

— يا بنت اللبوة الى الأمام .. امشى الى الأمام ..

وثارت تتحسس الأرض بقدميها يتقدمها صوت ويخلفها
صوت آخر .. كانت كلمات كليهما قدرة ملعونة .. ولولا
تعرضها للأذى لشتتت هى الأخرى بكلمات أشد قدارة ..
واصطدمت بأحد الحراس عند أول باب وأمسكت به قائلة :

— آسفة .. خذ بيدي ربنا يخليك ..

وضربها الجندي بدبشك البندقية .. قائلاً .. ايش ربنا
بتاعك يا قجة .. ونزلت درجاً صغيراً وهي تكاد تنكفء على
وجهها وزعت قائلة :

— واحد يمسكنى يدلى .. حرام عليكم .. أنا عملت

ايه ..

وانهالت عليها قبضة من الخلف قال صاحبها :

— خدى شمالك يا بنت المنا .. واجرى .. والا فرغت

فى رأسك ثلاثة عشرة طلقة .. هات ربك ينفعك ..

وزعت فى وجهه قائلة :

— ربى يصعقك .. ربى هو رب العالمين .. وهو ربى

العظيم .

وزمجر وهاج وتوعد واقترب منها وأمسك رأسها بكلتا
يديه ودفعها نحو الأرض .. وهوت على أم رأسها وصرخت
آه .. آه وسال الدم من رأسها وأنفها وتكورت فداس فوقها
كمن يدهس حشرة .. وتعالق قهقهة الجندي فى مجنون لما تعرت
ساقها .. وقال أحدهم .. أتركها لى يا سيدى .. وقال
المخير بصيغة أمره لأحدهم .. خذ اللبؤة الى مقرها ..
وأخذها الجندي يدفعها لتقف ثم يقذف بها أمامه بقسوة وضراوة
فتخبط كرة أخرى فى الأبواب والحيطان والجنود .. الجنود
الذين اصطفوا لينالوا منها ويعبثوا فيها بأصابعهم .. حيث
جرى عمل هذه المراسم لأية امرأة أو رجل نزيل .. ودفعها

الجندي في حجرة صغيرة مع أحد النزلاء فوقعت عليه وتحسسته
بيدها قائلة :

— آسفة يا أخى .. معذرة ..

وشد الجندي العصابة من عينيها • وقال :

— هل ترين ؟ ..

هند — نعم ما زلت أرى ..

الجندي — من أنا ..

هند — رجل ..

الجندي — أنا ربك ..

تلعثت وقالت :

الله .. الله ..

الجندي — ألا يعجبك أن أكون ربك .. كل من في القصر
من النزلاء نطق بهذه الشهادة .. وضرب الجندي النزيل بحذائه
على رأسه وأوقفه .. فوقف الرجل بمسحوبة لأن آلاماً مبرحة
لم تساعد على أن ينصب ظهره وقال :

— آه .. آه .. انى أموت ياسيدي ..

الجندي ينهره قائلاً :

— قل لها من أنا ..

النزيل يسبل بعينييه نحو الأرض :

— قائد المبنى .. القائد الأعلى .. و ..

وأمسكه الجندي من رقبتيه ولواها في يده وأجبره أن

يقول :

..انه ربي يا سيدتى ..

وضربه الجندى ثانية ولوى ذراعه :

— يا بن المهتمو .. قل لها أنا الرب ..

النزير مجبراً .. انه الاله يا سيدتى ..

الجندى — قل لها يا قحبة ..

الرجل — يا قحبة ..

الجندى — افعل بها الآن والا كانت الليلة آخر يوم

من عمرك ..

الرجل — ان صحتى لم تعد .. لم أستطع عمل هذا

الآن .. لقد انتهيت .. أرجوك يا سيدى .. وغنج الجندى

وتأوه كالفاجرة .. وامسكه من خناقه وقال :

— ستفعل الآن وأمامى .. اجعلها تخلع ملابسها أو اخلعها

أنت ..

وتقدم الرجل نحوها وقال ،الدموع تنهمر من عينيه :

— اخلعى ملابسك ..

ونزلت الصاعقة بها .. وتمالكها بعض من التدبر وقالت :

— حاضر .. حاضر .. سوف أخلع .. أليس لى أن

أستريح قليلاً ..

الرجل — هو الذى يريد يا سيدتى ..

الجندى — يا ابن الحرام قل لها يا فاجرة ..

الرجل — يا فاجرة ..

الجندى — اخلعى ملابسك ..

هند - أفا أمامك افعل ما تريد ..

الجندى - تقدم وافعل كما أمرتك ..

تقدم ومد يده يفك أزرارها .. وفى لحظة وقع بالأرض ..
وحمدت هند ربها متمتمة بالتسبيح .. واتفكأ عليه يضربه
بقسوة حتى تهيأ لهند أنه انتهى .. ولأذت بالجدار تبكى وأقرب
الجندى منها وهوى بيده على وجهها فسقطت على الأرض مطلقة
صرختين .. وزعقت سيده فى الزنازة المجاورة .. زعقت فى
طفل تحمله على حجرها هو طفلها وزعقت أيضا لما سمعته
من جيرانها .. ثم عوت كما تعوى الكلاب .. حرام عليكم ..
حرام .. ألم تكونوا أطفالا فى يوم .. خذوا منى طفلى
واتركوها حرام .. لقد تمزقت أحشائى من الألم عليه .. قتلته
الحصى .. ولدى فى حاجة الى علاج حقيقى لن تعمل له حبات
السلفا شيئا .. وكان صوت السيدة هو الرنين الوحيد الذى
أشعر هند بأنها مازالت حية .. واندهشت من حديثها ومناجاتها
.. وهافت عليها نفسها وأن هناك غيرها يتألم أكثر منها ..
وحمدت الله على عدم المساس بها .. وجن جنونها لما تصورت
أن يكون هنا أطفال .. ان هنا أطفالا بالفعل .. أطفال منع
أمهاتهم .. وارتفع صوت المرأة ثانية ابنى يموت بين يدى
وصدري خال من اللبن وطعامكم بارد وقدر ينفر منه الكلاب ..
أيها الناس .. هل أتم ناس حقا .. هل يتحمل طفل هذا
العذاب .. خذوا طفلى بعيدا عنى .. ألقوه فى أى طريق ان
حيوانا ضالا سينقذه ويرأف بحاله .. ان هواءا عليلا يشفيه ..

ما الحكمة أن يموت طفلى بين يدى .. زوجى جاسوس فى بلد
 السرجان يعمل ضدكم كما تقولون وما ذنبى أنا وولدى ..
 انه لن يعود من أجلنا .. ابقونى أنا، وأطلقوا سراح طفلى ..
 ان لم تتعلموا فسوف أقتله بيدي رحمة بى ورحمة به .. ان
 زوجى لن يعود أبدا .. انه يخافكم ويكرهكم ويزدريكم ويصق
 على رأتحتكم .. ان طفلى الآن يموت يلفظ حياته الى الأبد
 ليس لى غيره .. لم يبد لى شىء فى الحياة .. وأمسكته
 بيد مرتعشة لترى وجها مربعا لطفل مزقته الحمى .. فتلك
 رأسه المتداعية هى شكل جمجمة أقرب من شكل رأس ..
 هى أقرب لرأس قط من رأس طفل .. وهذه العينين الغائرتين ..
 والفم الذى سواء السقم .. ان اكل ما فيه يئن من المرض
 ومن الجوع ومن الظمأ .. ان صلات الحياة بالطفل قد
 انقطعت .. كالماء الذى حرمت منه الأرض فنشقت وهوت ..
 وهوت الأم على رقبة طفلها بكلتا يديها: تخلص تلك الحياة منه
 وفى اعتقادها أنها ترحمه وعوى الطفل مرة .. ثم خرج منه
 مواء وخرج لسانه من فيه .. وبرزت عيناه فى لحظة
 كمن يستغيث من أمه أو يندهش لأن أمه تفعل به هذا ..
 لكنه فى لحظة أخرى هز رأسه كأنه يفهم أنه يقدر موقف أمه
 وأنها تفعل ذلك لترحمه .. انه يستغيث بها من نفسها ..
 ويؤنبها .. لكنه فى كل أمور الشعور التى يشعر بها أى طفل
 فى مثل هذه الأحوال يشكر أمه .. انه يرضى عن فعل أمه
 لأنها تجعله يفارق أحط حياة صنعها واحد من البشر .. وشقى

الطفل قلب أمه بسكين حاد .. وفزعت الأم ووقفت والطفل
الميت بين يديها وانفجر بقية من عقل في رأسها واقتربت من
قضبان الباب لتكوين ظاهرة لكل عيان وجأرت :

يا خونة يا سفلة يا حيوانات .. يا قاتلى الأطفال ..
يا حكمدار الندامة والانحطاط يا جند .. يا حرس .. يا لعنة
الزمن .. يا حسرة الحياة .. يا ظلمة أبد .. يا بلدة
زنت .. يا أمة بصقت على اللبن .. يا قاتلوا الحياة فى قلوب
أمنت .. يا غجر .. يا حثالة مجتمع .. يا أحقر من فى البلاد
وأحط بشر ..

وجرى السجناء يضعون آذانهم ورؤوسهم وعيونهم على
قضبان الباب لكل زلزلة فى هذا المعتقل الرهيب .. أيها الناس
لقد قتلت طفلى لأنهم قتلونى .. قتلوا الرحمة فى داخلى ..
أيها الناس لقد طلب منى طفلى أن أفعل لأرحمه من العذاب
فما رأيكم .. هل ستقتلونى تعالوا وافعلوا والله انى أرضى
بحكمكم .. يا رجال الحكمدار العظيم والمهيب .. رجال المهيب
ان كنتم حقاً رجالا اقتلونى .. أخرجوا الصوت فى داخلى ..
أريد موتا حقيرا دائيا وهذا هو موتكم .. أنتم الموت المهان
تحت أقدام بغت وتكبرت وكفرت وتجردت .. تعالوا بهذا
الموت .. انى أريد الموت فأنا قاتلة .. وأنتم أشد قتلا لأنكم
دفعتمونى الى ذلك .. وعباس أين عباس .. انه القاتل الكبير
بل هو الشيطان الرجيم .. يا أيها العالم تعالى وخذ طفلى ..
خذوا طفلى وأقيموا له مقبرة فى الهواء انى أخاف على طفلى

من مقابرهم •• وتعال صيحات السجناء •• أظفال ورجال
ونساء من كل الأعمار •• أصوات تصرخ وأخرى تولول وغيرها
تبكى ثم توحشات كلها وتالت •• الله أكبر •• الله أكبر ••
ويسقط عباس •• يسقط عباس قاتل الأطفال •• وحفل السجن
بمظاهرة •• مظاهرة حطت الجدران والأغلال والأبواب
والتضبان •• وجن جنون المأمور •• ماذا يفعل •• اتصل
بالقيادة •• وعلى عجل وبغير تردد جاءت الإوامر بإعدام أعلا
الصيحات فى ساحة السجن حتى يكونوا عبرة للجميع ••
واتزعوا من كل زنزانة رجلا أو امرأة أو شابا •• وكافت فى
مقدمة النساء المرأة التى قتلت بالقلبا •• وكان بينهم غلام ماتت
أمه من قسوة التعذيب منذ أيام •• وهو يهتف كل يوم
بسقوط الحكمدار •• تسعة عشرة رأس •• كل رأس فيها من
الألم والعذاب ما يمتأذ به هذا العالم من مساحات الهواء ••
لم يكن باستطاعة أى منهم أن يفعل أى شىء •• وفى لحظة
رفعت الأيدي سوية الى أعلا ولاذت العيون بالوداع •• ومنهم
من صرخ وآخرون أسمى عليهم وغيرهم تشنجوا •• ورجفت
القلوب ثم خفقت وتعالت الأصوات متتابعة •• الله أكبر ••
الله أكبر •• ثم انتظمت سوية مثل ذكر •• الله أكبر ••
والألم يلف الجميع •• كل من فى هذا المبنى فى حزن وألم
وبكاء •• كان الحزن والقهر فى هذا المكان خليقا بأن يجعل
الحيطان تبكى والأشجار المحيطة بالمبنى تولول •• وكان هناك
الحمير ترعى الكأ والكلاب تأكل النفايات الملقاة خلف

الجدران .. لقد ضلت هذه الحيوانات طعامها ونهقت وعوت
وسالت الدموع من عيونها ونكست رؤوسها بالأرض .. وفي
لحظات انطلقت الرصاصات كالرعد فى الرؤوس والرقاب
والصدور .. ووقع جدران الايمان يحتضن الأرض .. لا .. لا ..
ان جدار الايمان لا يقع .. سكتت أصوات .. انطلقت أجساد
بشر تجاهد فى سبيل الله .. وصعدت أرواحهم الى عنان السماء
مخترقة القضبان الصداة والجدران العفنة .. وتعالى أصوات
الفرع والخوف فى كل زلزلة وسرعان ما هوت من الضمع ..
كل فزع فى داخله وتألم .. كان الحداد عميقاً يخيم على المكان
كسحابة من دخان أعبر لا ينجلى .. ان الجثث نفسها مازالت
تبكى من شدة الكفر .. وقد حملت الرياح هذه المناحة الى
كثير من بلدان العالم .. لكنه للأسف ان التعاون السياسى مع
هذا النظام تحكمه المصالح والأهداف .. لا أحد يدرى
ماذا يحدث فى الغد .. ان انتقام الله الآت ..

وجأر الجنود فى المبنى .. لا صوت .. لا نباح لا دموع
والا أخذناكم الى هذا الموت .. وساد الرعب وسقطت القلوب
عن النبض .. ولم تكن النبضات المتبقية الا خنقات كوخز
الابر .. وتهدمت الرؤوس .. تهاوت من الصدع .. تجسدت
العروق وجفت من جريان الدم .. انهارت الأدمغة وبالأحرى
حفيت الرؤوس .. وأسدل الليل عباءته السوداء .. ولم يكن
هناك أية حياة للنزلاء تذكر ولم يذق واحد منهم بلعة خبز عفن
أو نقطة ماء .. ومضت الحياة بعد هذا اليوم كالبصقة ..

وقالت هند لزميلها فى القبوة •• والله لو عادت الحياة بعد ذلك
لهؤلاء الذين أعدموا •• فان طريق الحياة معهم يضل •• ان
الحياة بعد ذلك لكل الذين يعيشون فى هذه البلاد •• هى
الهلاك •• لقد ماتت الحياة فىنا حتى ولو كنا أحرارا فى الغد
•• ان هذه البلاد سجن كبير •• والسجن داخل هذه القضبان
لا يختلف عن خارجها •• من ينقذ بلادى •• وغاص سجن
الأفندلس فى حزن أبدى •• وبعد أيام تم اخلاء السجن من
من نزلائه •• حيث قبضوا عليهم فى سجن آخر •• وأيام أخرى
قليلة تم تجديد النزلاء بسئات آخرين تم القبض عليهم ••
ومضت الأيام ثقيلة وسط ذهول وأحلام خائفة •• وجاء
يوم عبد اللطيف الكافى •• حيث وضعوه فى عربة جيب أوصلته
الى شبح بيت قديم يمتلأ ببقايا مهمات قدرة •• وأدوات
الموت ترتفع فيه كظل شيطان رجيم •• نزل من المركبة معصوب
العينين وخلفه جندى يسوقه الى عامود حديدى دقوه فى
الأرض وتم ربطه فيه من القدمين وتحت ابطيه •• ولم تمضى
دقائق حتى أشرقت هند •• انها المرأة التى تحجبت وآمنت
خرجت عن طاعة السادة فلايد من تأديبها •• ولما فكوا
العصابة السوداء من على عينيها انهارت تمسك بالأرض من هول
المفاجأة •• عبد اللطيف مربوط على العامود •• وحاولت أن
تتماسك لكنها لم تستطع •• حاولت أن تصمت صمت الجدران
لكن بكاءها كان شديداً •• ولم ينقطع صوت الله فى داخلها
وأخذها الجندى وأقعدها على حجر يبعد عن عامود الصلب ••

وجالت يناظرها ما تستطيع .. صندوق خشبي قديم مدهون
بدم البشر له حلقات حديدية على جنبه .. قطع خشبية في
صورة سيقان البشر دقت فيها مسامير غليظة .. ملابس قديمة
مبعثرة وممزقة .. أجولة من الخيش آكواماً هنا وهناك منقطة
بالدماء .. وأثر لجزع شجرة جاف مغروس بالأرض .. والهواء
بارداً كالصقيع والشمس مع ذلك شديدة متوهجة .. والجندي
الذي هناك يعلق بندقيته في كتفه وعيناه معلقتان على الكنانى
المصلوب .. كان كل شيء مدهون بالأحمر حتى رمال الصحراء
تكاد تمتلئ بهذا اللون .. وباب أحمر قائم يعوص فى الأرض
ونافذة مزججة كذلك .. ولما بدأت عيناها تألفان تلك الظلمة
القائمة والمتوهجة فى لونها الأحمر .. ظهرت عربتان جيب على
مرمى البصر .. واقتربت احداها من العمود ونزل منها جندي
وبعده ضابط برتبة نقيب .. ونصب الجندي خيمة صغيرة على
وجه السرعة وأنزل من العربة مقعداً ومنضدة صغيرة داخل
الخيمة وجلس أمامهما لحظة .. ثم قام ليقعد الضابط على
المقعد .. ووضع على الطاولة بعض الأوراق وكتب قليلاً ..
وكأنت الخيمة تبعد عن مكان الصلب عشرون متراً ..

وكانت هند تحاول أن تمنع النظر فيما حولها وتهمك فى
اطلاق ماذا سيحدث بعد .. وكانت رقبة المصلوب ترتخى وتتدلى
على صدره قليلاً وقدماه لا تقدران على حمله رغم أنها مشدودة
بالجمال .. وجاء جندي من بعيد يحمل علبة وضعها أمام الضابط
ورجع خطوات الى الخلف وفتحها النقيب وعد ما فيها وتاولها

له فأخذها الجندي ومشى بها حتى وصل الى الرامى الذى
يحمل البندقية •• وفتح خزنتها وحشاها بالوابل وسرعن
ما أعادها ورضعها فى كتفه ثانية ووقف شبه اتباه مشدود
القامة •• والمصلوب يرتجف لما سمع صوت البندقية •• وبقايا
من نبض قلبه تكاد تسرى فى جسده الذى جف كعود حطب ••
وتناهى الى سمعه أصوات غليظة كالتى تسمع فى غابة
حيوانات •• ومن بعيد يأتية صوت تقطيع أشجار وأجساد تقع
فى مياه •• وكان لهيب النار تآكل فى قطع الخشب •• وكانت
هناك كلاب كثيرة قد انتشرت حول المكان تعوى بأعلى صوت
•• وفى هذه اللحظة كان عبد اللطيف يريد أن يرى الدنيا حوله
وكان يعتقد أن فوق رأسه سقفا مصنوعا من الزيت والقضبان
وروث الحيوانات •• وكان يحاول تحريك وجهه يمنة ويسرة ••
ومن حلاوة الروح كان يريد ان يجأر •• ولما أيقن أنه ميت
لا محالة •• جأر قائلا :

— يا كان •• يا كان •• يامه •• يامه

وزعق فيه النقيب :

— اسكت يا بن القحبة ••

وزعق أكثر وأكثر ودعته ثانية حلاوة روحه ونادى أعظم

مناداة :

— يا رب •• يا رب •• حسبى ووكيلى •• حسبى

ووكيلى •• ثم زعق الجندي فيه فكاد يدخل فى العامود وتمنت

هند أن تسقط معشياً عليها قبل أن تسمع صوت الرصاص ••

وأصابها نوع من التخدير وانسجبت بجسدها الى الخلف
ووضعت كفيها على رأسها ومالت بوجهها نحو الأرض وهي تفتش
بمقلبيتها الرمال التي أصبحت بلون الغبار وصرخت وكتمت
الصيحة فسرت فى داخلها كالمديفة وبصقت دما أزرقاً يتموج
بالحمرة وفى غمضة عين كان جندى يضربها من الخلف بحذائه
قائلاً :

— هل يصعب عليك الكانى ؟ ..

... وانكفات على حذائه متوسلة :

— هذا له أطفال وزوجة وأهل ..

وشدها الجندى من قفاها ودفعها الى الأمام فتكورت
ووقعت .. ونادى النقيب عليه بأن يتركها لأنه لا يوجد امرأة
غيرها .. حتى ترى وتعود الى رشدها .. وسكت لحظة
وأردف .. انها وجبة مسعود بعد العملية .. وذهلت من
قول الضابط وارتمت تلف وجهها بالأرض .. وساد الصمت
والتست عينا الجندى وفنجرت وطار منها الشرر وفى لحظة
تورمت وانتفخت ودورت .. ورجع الجندى الى الخلف قليلاً
ومد ساقاً الى الأمام وثبت السلاح فى كتفه واكفهر وجهه
وانصهر كأنه وهج من حديد .. ودوى الصوت كاللهب وانفجار
قد سكن ولسان خرج وزفرة تأوهت وصوت زعق وجسد تدلى
وخار من قوة النار وعظام تحطمت .. وأخذوا الرأس ..
وضعوها فى صندوق .. وطوحوا بالجثة فى بطن الجبل ..
ولا شىء .. ان عبد اللطيف مثل مئات من كان قد ظنوها سعادة

أبد ولا يعرفون أنهم فى النهاية فى بلاد حكموها غجر ..
انه نقطة فى بحر عميق .. وجبل كبير واعر تأكل فيه الكلاب
والقطط الضالة جثثاً تعفت ..

وحملوا هند الى عربة الجيب وهى أقرب الى الميتة منها الى
من بقى فيها شىء من حياة .. انها وجبة مسعود الذى يفترس
أى أثنى بعد أى عملية .. ليكبر ويعيش كالوحوش الضالة ..
انهم يقولون أنه من الأشاوس والمغاوير وهو متخصص فى
عمليات أبناء كان لأنه شديد الكراهية لهم .. وقاومت هند
مقاومة الموتى ثم ماتت بين يديه ورجليه .. وقالت وهى تموت
أمامهم .. اللهم امدد لى خيطا رفيعا من النجاة .. من عفوك
ينجينى من الموت بعد التوبة .. ولما تأكد له تماما أنها أصبحت
فى عداد الموتى .. نادى على السائق أن يدخل فى أقرب
فتحة فى الجبل لالقاءها حتى تأكلها الحيوانات الضالة هكذا
قال له .. ودخل السائق فى فتحة تؤدى الى أشجار شيطانية
خرجت فى بطن الجبل وحملها مسعود على كتفه وألقى بها على
الرمال وسط مجموعة من الأشجار .. واقلبت العربة الى الطريق
المؤدى الى المدينة يبحثون فى أحد شوارعها عن امرأة له حتى
يظل قويا شديدا لعملية أخرى .. ولما اقتربت عربة الجيب
من المدينة .. نكشت هند فى الرمال بأصابعها ثم نامت قليلا
وهى لا تدري أين هى .. ان غيبوبة تامة تأخذها .. وأنها فى
لحظات قبل الموت الحقيقى .. هى لا تعلم أنها فى جبل يمتلىء
بقطع الطرق والوحوش والذئاب التى لا تتورع عن فesh لحوم

البشر .. ودخل المغرب وكان قرص الشمس يسقط هناك عند الأرض المترامية البعيدة .. والسماء تكتظ بالغيوم .. غيوم ثقيلة تنذر بالمطر .. وبدا في الأفق لمسات الهواء البارد ونسمات تحف بأوراق الشجر .. وبعض الطيور تلامس الأرض وأعال الشجر باعثة صوتا سحرىا .. بدأ وكأن دائرة من دفء الطبيعة نزل يحيط بالمرأة التى تابت الى الله فأنتقذها وجعل لها مخرجاً .. والمرأة مازالت متهالكة خائرة القوى .. ثم شعرت بخليط بين النوم والكاهوس أو حمى .. وتحسن الطقس قليلا وسكن الهواء وانفشعت بعض الغيوم من السماء .. ولو كانت يقظة لأدركت أنها هالكة لا محالة .. ووقعت كومة قش قرب رأسها من أعال الشجر فلامست شعرها .. وانحنى عصفور طائر فوقها وقر أعواد القش ولما أدرك الطائر أن جسداً لبنى آدم يرتدى على الرمال زكرك بصوت عال وفر .. وران البصم كرة أخرى فيها مازالت المرأة غائصة فى نومها أو غيبوبتها .. وكانت أصوات المدينة البعيدة تتراعى الى هذا المكان كل حين وكأنها صوت مركب يخور أمواج البحر .. وانقلبت على ظهرها بعد ساعة من ظلمة الليل وبدت السماء فى عينيها المتورمة وكأنها عباءة سوداء فوق وجهها .. لكن خفيف أوراق الغابة وصوت بعض الطيور فى أعشاشها أيقظ شيئاً فى رأسها .. وتساءلت دون أن تنبش بأدنى صوت .. أين أنا .. وتحسست الرمال بأصابعها ونهضت على ذراعها لكنها سرعان ما هوت وانعدلت على جنبها وبدأت تبصر قليلا محاولة أن ترى

كل ما حولها وأخذت تفرك عينيها بأصابعها .. وبدأت الخيوط الغائبة على ذاكرتها كأنها شيء لا يصدق ان ما بقى فى تلك الذاكرة لا يمكن أن يمحوه زمن بكامله .. ان الكانى المصلوب قد دمرت رأسه رصاصات من جندى اسمه مسعود حقير وأن هذا الجندى كان يريد أن يعتصبها فقاومته وطلبت النجاة من ربه فأماتها .. وتهدأ له أنها ما بقيت فى كنف الحياة فرمى بها نعم .. ان ما فى العربة يبدو كما هو ثابت ألقوا بها هنا .. وتحسست ملابسها الداخلية فوجدتها ناشفة طاهرة وفرحت .. فرحت كما لم تفرح من قبل .. وهون عليها ذلك قسوة الظلام والخوف الذى يستشعره أى انسان فى هذا المكان التانى .. ولا أحد يصدق أن هند سعدت أكثر عندما أيقنت أنها بعيدة عن المدينة .. وأن أفق المدينة يعوى من بعيد .. ويرغم أن الليل حالك فى سواده فإن هناك اصفراراً غريباً فى عب السماء .. ان الهواء الذى عادت نسامته باردة يفرز صوتاً كصغير الأفاعى يكتنف الآفاق .. وغالبها النعاس وحفرت فى قلب الرمال مجرى طولى ووضعت نفسها فى قلبه وقعدت لتجلب الرمال من على أجناب هذا المجرى على ساقيةا ثم بطنها حتى غمرت الرمال جسدها كله حتى صدرها .. ولم يعد تنفذ الى جسدها لفحة من برد وأدفأت الرمال جسدها وحمدت الله وكان النوم عميقاً .. كان أقوى من أى شيء واستسلمت له وهمست الى السماء وكأنها تحدثها أحمد الله .. أنى بعيدة عن المدينة

وعن الناس وما بعد ذلك أيها الجبل الصديق والأشجار الطيبة
فإن أمره الى الله .. ان أمرى الى الله ..

وخرجت مركبة من المدينة يقصد صاحبها عاصمة
الشمال .. فجأة توقفت العرية عند الغابة ونزل الرجل وفتح
باب العفشه وأصلح العطب ولما عاد أمام عجلة القيادة نزل
ثانية ودخل قليلا فى الممر المؤدى الى الأشجار وفى حضنى
احداها تبول وانقلب مسرعاً الى الطريق .. ولما اقترب من
عربته تعلقت بأنفه رائحة ملابس فتوقف ورجع قليلا يسترق
السمع فتراحت الى أذنه أنفاس بشرية .. ان انسانا هنا
لا ريب .. هكذا قال لنفسه .. ان هند انسافة هادئة المزاج
لطيفة الطباع هذا منشأ هذه المرأة .. وفى أول نومها تهباً لها
من منامها أن رجلا سيأتى وينقذها .. وسعى الرجل ناحية
الرائحة والشخير وكانت رجليه تنفوس فى الرمال مما جعله
يشى على مهل .. وبعد خطوات كان يقف فوق هند ..
وغاصت قدماه فى لحم بشرى فتأوه وقفز الى الناحية الأخرى
وانحنى فوجد رأساً لامرأة يلفه طرحة سوداء .. وامتدت
يده تمسك بذراعها وصرخت هند ولكنها لم تستطع أن تقوم
من رقدتها .. وكان فى ميسورها أن تكررهما لكنها لم تفعل
حيث لحقتها الرجل .. قائلاً .. أنا أخوك .. لا تخافى
.. جئت أساعدك .. ولما تهباً وجهه لها توسمت فيه
السلامة .. وارتاحت لأصابعه الحنون فوق ذراعها ولما سكنت
مسبلة عينيها فى وجهه قال فى هدوء :

— من أنت يا سيدتى ••
وأشارت بأصبعها نحو السماء ••
وقال ثانية فى رفق :
— من آتى بك الى هنا ••
فهزت رأسها وقالت :
— وماذا تريد منى يا رجل ••
الرجل — أريد مساعدتك •• وأمسكها من ذراعيها وشدها
الى أعلى وقال :

— أخرجى شدى رجلك اسحبها ••
وفعلت ، وانكفات تنفض الرمال عنها •• وساعدها على
الوقوف وشعرت بالآلام فى ظهرها ونشأت المرأة تنن وبدا عليه
الحزن لتألمها •• وبلعت ريقها عدة مرات وقالت :
— هل لديك ماءً ••

وهرول الرجل الى المركبة وأحضر جركن مملوء بالماء
وعاد به مسرعاً وفتح ووضعه على فمها وأمسكت اثناء الماء
بكفى يدها وكأنها وجدت قفة من خبز طرى •• وارتوت هند
وشكرت الله بعينين مندهشتين تبصران فى ذهول الى الأفق ••
وحاول أن يحتضنها بذراعيه حتى يصل بها الى السيارة ••
لكنها شكرته على حسن صنيعه وقالت له :

— أفا يا سيدي قادرة على المشى •• جزاك الله خير

الجزاء ••

وتبعته وبعد خطوات قالت :

— الى أين يا سيدى ..

الرجل — ولما سيدى .. أنا لست سيداً .. ما اسمك ؟

— هند ..

الرجل — اسسى رافع وعمرى أربعمائة عاماً يعنى ممكن أن

تقولى لى يا رافع ..

هند — الى أين يا رافع ..

رافع — الى بيت أمى .. مكان أمين ..

هند — وأين بيت أمك .. اذا كان فى هذه المدينة التى

هناك فانى لن أذهب معك أبداً ..

رافع — ان أمى فى مدينة بالشمال ..

هند — أمى تسكن فى هذه المدينة .. العاصمة .. وطفلتى

معها وأبى وكل أسرتى .. ورغم ذلك فانى أريد الهجرة من هذه

المدينة الى أى مدينة ولتكن عبر الحدود .. ان الاخوان

يطاردونى بقسوة وهذه احداها ..

رافع — ستجدين الراحة فى الشمال .. أعرف كل حكايات

الاخوان ربنا يكفيننا شرم ..

هند — وكيف تأخذنى الى أمك وماذا ستقول لها ..

رافع — قولى لها أنت .. لقد تعلمنا أن نعمل الخير فى

كل الناس ..

هند — أنا امرأة غريبة الأطوار .. دعنى أعود الى الغابة

حتى أفضى نجى .. انها أفضل عندى من أى مدينة ..

رافع - فى بيتنا أشجار مثل هذه .. وسوف تحكى لك
أختى قصصاً كثيرة ..

هند - ان باب الله مفتوح ليخفر للذين يريدون وجهه ..
وفتح لها باب العربة وساعدها فى الجلوس بالمتعد
الأماسى .. وعدلت من شعرها ومسحت بعض الأوساخ التى
بنفوسها .. وفى المتعد الخائى مد رافع يده وأمسك بعباءة
سوداء من الصوف هى عباءة أمه كثيراً ما تتركها بالعربة ..
ولفت هند جسدها كله بالعباءة حتى رأسها وجلت بناظرها نحوه
وقالت :

- والله صدق .. من يتق الله يجعل له مخرجاً .. لقد
رأيت بعينى .. وزفرت بقرة وأردفت قائلة .. والله أنا لا أصدق
ما يتحدث .. يا الهى ..

رافع - ولتقرأ فاتحة الكتاب ..
فابتست هند ورفع كل منهما يديه الى أعلا وأخذ يقرأ ..
وساء الصمة لحظة .. واخترقت العربة الطريق الخال الى
السما .. بن أجمل مزيد من الأمان .. وقليل من الحرية ..
ومرت ايام أخرى نزل سلامة فيها ثلاث فنادق .. كان
آخرهم فندقاً بحى الفرادة .. وفى ليلة جاءه رجل كانى كلفته
ريما بالبحث عنه مقابل مكافأة كبيرة .. جاءه الرجل الكانى
بعد أسبوع من البحث والمسح فى كل المدينة .. وناوله رسالة
فى ظرف مقفول .. وأخبره وهو ينصرف على عجل أن ينفذ

ما فيها فوراً وأنه سوف يبلغ سيده بأفه سلمك الرسالة ..
وققل غرفته وفض الرسالة ..

لا تحية ولا سلام عليك ..

يا سلامة أنت تمام في العسل ولا تدري كم أن الظروف
خطرة من حولك .. عندما ينسد الليل هذه الليلة .. تسلل
الى بيت السيدة العجوز عند الجسر .. سوف أحضر اليك فى
المساء .. بعد المغرب بقليل .. سيناديك سائق العربية بكلمة
داود .. داود .. عندما تسمع هذه الكلمة .. اطلع الى الجسر
ستجدنى أنتترك فى عربية لونها أخضر .. هل تسمعنى .. هل
تفهم .. نفذ ..

.. ربما ..

وقام يجمع ملابسه وحاجياته فى الحقيبة .. وتمنى أن
تقترب لحظة الهجرة من هذه المدينة .. وتساءل والهلع يداؤه ..
وهل أصل الى السيدة العجوز فى سلام .. ترى الى أين
ستذهب وهل اذا كان الشمال حقاً كما وعدتني ربما .. فهل
الطريق طويل الى هذا الشمال .. ولما أقبل المساء بلغ الخوف
حلقومه وكان قلبه يابق بسرعة مخيفة وانقبض شئ فى صدره
وتسلل من الفندق بعد العصر بقليل .. كان يشعر بالهواء
يخنقه .. وأن هناك أياد ستمتد اليه تخنقه وتقبض على
روحه .. ورغم أن الشوارع تمتلأ بالمارة الا أنه لم ير أحداً ..
وتخبط بين الناس حتى ركب باصاً يحمله قرب الجسر ..
ليمشى فى طريق قرابة نيف ساعة حتى وصل الأرض التى تلف

بيت السيدة العجوز من أعلا .. وكاد ينبطح على الأرض
ليحضرها .. ونزل إلى البيت منحنيًا وهو يمسك بحبات الرمل
الساخن .. وسقط في حفرة وكان واحداً دفعه من الخلف ..
وكانت قبضة واحد قد دفعته بالفعل ولما حاول النهوض كانت
قدماه لا تقدران على حمله لأنه اعتقد أن هذه أيادي الجماعة ..
ونظر إلى أعلا فوجد رجلاً ضخماً لونه أسود وكأنه عبد
من الحبشة ومد الأسود يده إليه قائلاً :

— تعال ..

ولم يكن سلامة لديه أى شجاعة حتى يرفض فسلم له
يده .. وشده الرجل إلى أعلا فى عنف .. وسقط سلامة عند
قدمه ونهته فى كلمات لم تستطع أن تخرج من فيه .. وضربه
الرجل على كتفه وأوقفه قائلاً :

— لماذا تأت إلى هذه السيدة الليلة ؟ ..

سلامة — هى مثل أمى وأت لزيارتها ..

الرجل — لقد ماتت ..

سلامة — بالله .. أحقا ماتت ..

الرجل — تعال نزورها فى قبرها ..

ونزل سلامة مع الرجل وأمام بيت العجوز بخطوات وضعت
لافتة نقشت على الحجر تعلو الأرض بقليل مشته على جدران
شيد من نفس الحجارة .. كتب عليها .. سيدة البحر الطيبة ..
وبكى سلامة .. وتركه الرجل يفعل وجلس كل منهما على
الأرض .. وكان البيت مقفلاً صامتاً تجردت الحياة من حوله ..

فأى معنى للحياة بعد الموت .. وأخذ الرجل ثانية من يده
وربت على كتفه قائلاً :

— لا تسرف فى الحزن .. تعال ..

سلامة — الى أين يا سيدى ..

الرجل — الى المدينة ..

سلامة — أرجوك لن أذهب الى هذه المدينة ثانية ..

الرجل — ولن تستطيع أن تبقى هنا ..

سلامة — لى موعده هنا مع ناس ..

الرجل — مع داود ..

تلغثم سلامة وقال :

— داود ..

الرجل — ضياء بن على .. الشهير بـداود ..

وسحبه الرجل وطلقا فى طريق ضيق الى فوق وقابلتهما

فتحة فدخلا فيها .. واذا بهما يشرفان على الجسر .. وتقدمت

مركبة طويلة خضراء .. نادى سائقها ..

— يا داود .. يا داود ..

يالها من مفاجأة .. مفاجأة .. هكذا قال لنفسه .. وابتسم

الرجل الأسود له مداعبا .. وأخذته الى العربية .. وهزت سيدة

جسيلة رأسها فى ثقة .. كانت تجلس فى المقعد الخلفى وكأنها

تقول .. الزم مكانك ليكن لديك شىء من عزم الرجال ..

وفتح الرجل الأسود الباب ودخل سلامة بجوار ريماء .. والتي

فتحت حقيبتها وأخرجت منها ظرفاً ناولته للرجل الأسود

